رواية
بيت المساكين
مينا عادل جيّد

بيت
المساكين

مينا عادل جيّد

بيت المساكين

رواية

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢١

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢١

© مينا عادل جيّد ٢٠٢١

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون

المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

بيت المساكين: رواية / مينا عادل جيِّد - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٧٠٠

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٠٤٥ / ٢٠٢١

تصميم الغلاف: كريم آدم

لوحة الغلاف: بارتولومه إستبان موريو، «القديس يوحنا المعمدان في طفولته»، ١٦٧٠ (تفصيل معدل)

المسار

ابتعثتني منظمة اليونسكو، التي أعمل كأحد موظفيها الخبراء في حفظ التراث العالمي اللامادي، لمساعدة مصر في تسجيل مسار العائلة المقدسة على قائمة التراث العالمي اللامادي، بعدما أقر بابا الفاتيكان نقاط مسار العائلة المقدسة لمصر ضمن شعائر الحج لملياَري مسيحي حول العالم.

منذ خمسة عشر عامًا وأنا مستقر في باريس، لم أزر مصر طيلة هذه المدة، ومنذ خمسة عشر عامًا أيضًا لم تغب مصر عن عقلي يومًا، ما شجعني على الغياب هذه الأيام كلها هو أن عائلتي بأكملها هاجرت من مصر إلى أمريكا منذ سنوات، بعدما هاجر أخي بطرس مع زوجته دميانة، ثم أخذ باقي أفراد العائلة ليستقروا معه هناك.

عندما أتذكر مصر أعود إنسانًا آخر، أنسى الدكتوراه في الأُنطولوجيا التي حصلت عليها من أوروبا، وعملي في المنظمات الدولية، والجامعات العالمية التي حاضرت بها، وأنسى الكتب التي قرأتها، وزوجتي وأبنائي الفرنسيين، وأدخل في حالة روحية عذراء، كأنها قلب روح العالم وفَجره. كتب مرة صديق لي ـ مصري يقيم في كندا منذ سنوات ـ على فيسبوك، متعجبًا من حالة الحنين إلى مصر بالذات، وقال:

حولنا مهاجرون من كل مكان في العالم، أغلبهم بعد أن يهاجروا تنقطع صلتهم ببلدانهم وأخبارها وهمومها، إلا نحن المصريين تجدنا ما زلنا نتابع أخبار بلدنا السياسية والفنية والرياضية،

وحوادثها الاجتماعية، ونعلق عليها ونتفاعل معها ونتأثر بها، وكأننا ما زلنا نعيش فيها.

ثم شتم مصر في نهاية البوست، كعادة المصريين في شتيمة ما يحبونه حبًّا صادقًا.

نظرت من نافذة الطائرة بعد أن حلَّقت واستقرَّت بين أضلع السماء، فرأيت القمر، كان هناك عن قرب، يحاول أن ينظر إليَّ ويلوح بالأسرار من بين ثغرات موجات السحاب الضخمة، التي كأنها رئة الكون، فابتسمت له بسمة هو يعرفها، وتذكرت مواعيدنا الطفولية القديمة وأحاديثنا التي لم تكن تنتهي.

أوشية القمر

قبل شق الفجر لباكر الزمان، كان القمر ما زال هناك في قلب السماء، مكتملًا كوجه الرب، نوره محيط بكل حلم، وبهاؤه يبشر بكل علم، والنجوم المتوافدة من أركان السماء البعيدة تبتسم لأقرانها من البشر بَسمات من ضياء معكوس. «النجوم نحن، ونحن النجوم يا ناس، أصلٌ على الأرض وصورة في السماء. كل منا له نجم في السماء؛ فور ولادة الإنسان يبزغ نجمه السماوي الصغير فوق بيته، بعد أن تسمع السماء البكاء الأول للمولود، تضيء له نجمة صغيرة، كأنها هدية السماء ومواساتها لبداية عهد الإنسان الجديد مع الحزن، ويكبر نجم الإنسان في الفضاء كلما كبر هو. أنا كنت أعرف نجمي، قلبي كان يتعرف إليه مجددًا كل يوم، ولو راقبتم أنتم أيضًا السماء فستدُلكم قلوبكم إلى نجومكم الخاصة بسهولة. راقبوا نجومكم، فسترونها تسير أمامكم كلما سرتم، وتسافر معكم إن ارتحلتم من بلد إلى بلد. وعندما يموت الإنسان، تنتهي مهمة نجمه في السماء، ويسقط النجم فوق قبره وينطفئ؛ وذلك مفهوم طبعًا، فبعد الموت لا حاجة إلى ضياء سماوي يؤنس وحدة الإنسان على الأرض، ولا أهمية لشيء منير يؤنسنا بعد انتهاء شعورنا البشري بالحزن والألم، إذ بعد الموت يخرج الإنسان في النهار». هذا كان كلام جدتي عن نجوم البشر المؤنسة.

ويومها رأيت في قرص القمر، مثل كل مرة، القديس مار جرجس الروماني يملأ وجه القمر متربعًا على عرش خيال الفضاء، بزِيّه الحربي المهيب وحَربته وحصانه، يحارب التنين المتوحش

ويطعنه حتى الموت، ويخلص القرية وبئرها من احتلال التنين لها، والْتهام فتيات القرية اللائي يقدمن أنفسهن له كقرابين ليقين الباقين وحشيته. أول مرة عرفت فيها أن القديس مار جرجس الروماني يسكن القمر ليلًا ويؤنسه، ويملأ وجههُ وجه القمر، إلى أن يأتي خير نور الصباح، كانت أيضًا من جدتي، وجدتي كانت تنظر إلى القمر المكتمل ليلًا وترفع يديها الاثنتين في عشم ضاحك، وتقول له، وعيناها مُحلقتان في أحشاء السماء: «نظرة يا روماني». حينها ساعدتني جدتي على تخيل هذه الرؤية، فخفت وارتعدت بشدة وجريت منها، ولكن مع الأيام أصبحت معتادًا على القمر وفي جوفه مار جرجس، بل مستأنسًا به للغاية، «هذه أيقونة رسمها الرب يا ناس»، كما كانت تقول جدتي.

ثم باتت عادة في كل شهر، أنتظر اكتمال القمر، ووضوح مار جرجس بشجاعته وبهائه على صفحة وجه القمر، وأصعد إلى سطح منزلنا القديم وأناجيه، أطلب منه طلباتي الشخصية الأنانية، ثم بعد ذلك أطلب منه طلبات أخرى أكثر صعوبة وأجلَّ أهمية، وكان أهمها على الإطلاق أن يشفي مار جرجس أمي من السرطان.

* * *

أنا صموئيل، كنت في المدرسة لا متفوقًا ولا بليدًا، شكلي كشكل الناس، جسمي كأجسامهم وهم أطفال، وكأجسام أبنائهم إن كانوا آباء أو أمهات، لوني لونهم، وقد صنع اللهُ لي ضحكًا، كل مَن كان يسمعني يضحك لي. وكان لي صديق يجلس بجواري ويشاهد معي القمر. لم يكن صديقي مثل كل الأصدقاء، كان غريبًا بعض

الشيء، لأنه كان حَمَلًا. نعم، حَمَل جاء به أبي إلى بيتنا وكان حَملًا طفلًا لنعلفه ويكبر، ثم صار حَملًا شابًّا، ولكنه ظل ضئيل الحجم وخفيف الوزن. حَملي كانت حالته أصعب من حالة البقرات العجاف التي أكلت البقرات السمان في حلم فرعون يوسف، حَملي هذا ابتاعه أبي قبل مولد العذراء ببضعة أشهر بغرض نذره للعذراء في مولدها السنوي، حتى تتشفع لنا أم النور وتشفي أمي من المرض. بعض النذور تقدَّم إلى القديسين بعد أن يُنفذوا طلباتنا، ولكن علاقة أسرتنا بالعذراء مختلفة؛ فكنا أحيانًا نطلب منها الطلبات بدون وعود بتقديم النذور، وعلى الرغم من ذلك فهي تلبيها لنا، بدون أن تطلب منَّا شيئًا في المقابل، وأحيانًا أخرى ننذر النذور لها في مقابل الطلب، وأحيانًا نرسل النذور قبل تحقيق الطلب، لأننا على يقين أنها سوف تحقق لنا طلبنا ذات يوم. وسؤال قلب أسرتنا هذه المرة كان أكبر من طلباتنا السابقة كلها، بالحَمل هذا كنا ننشد معجزة طبية سمائية عظمى، وهي شفاء أمي من مرض السماء والموت وهو السرطان، هذا الحَمل نَذْر، هدية للعذراء على مذبح ديرها في المولد، حتى تتذكرنا وترفع تضرعاتنا إلى الله، فيشفي الله أمي ويحمي دعائم أسرتنا قبل أن تنهدم وتتحطم برحيلها.

أوشية ليلة السفر

كانت ليلة أول أيام مولد العذراء أسعد ليالي العام بالنسبة إليَّ وإلى أسرتي، لأننا في الصباح سنبدأ أسبوعًا من المرح والمتعة في جبل أم النور، أمنا العذراء. قال لنا أخي الكبير بطرس ذات مرة إن المولد يقام في نفس هذا المكان كل عام منذ ألفَي عام، منذ جاءت ست الكل ورضيعها ملك العالم، وخطيبها النجار الفقير، إلى مصرنا، هروبًا من قرار قتل ابنها يسوع كي لا يصبح ملكًا على أورشليم حين يكبر وينافس ملك الرومان على كرسي المملكة. زارت عائلة العذراء أكثر من مكان في مصر، وأهمها بلدنا، وسكنت في أرض المولد، ومن أجل ذلك نحن نحج إلى هذا المكان مرة كل عام. وكان أخي بطرس يضيف أن المولد ليس من اختراع الأقباط، بل هو عادة قديمة، وربما كان يُقام في المكان نفسه قبل دخول المسيحية إلى مصر، وحتى قبل زيارة العائلة المقدسة لها، لأن القدماء المصريين كانوا يقيمون الموالد لآلهتهم الصغرى، وكانت كل قرية مصرية تقريبًا لها إله تحبه وتتشفع به، وتظنه أفضل من غيره بين الآلهة في الاستجابة، فيقيم له أهل القرية المولد ويقدمون له الذبائح والنذور مثلنا بالضبط. وكان هذا الكلام، مثل كل كلام أخي بطرس، يضايق حماسنا الديني.

فور سماعي من الكبار أن «العذراء فتحت»، أعلم أن المولد سوف يبدأ خلال أيام، ونبدأ في تجهيز الأغراض الكثيرة التي تكفينا لمدة أسبوع المولد، نجهز كميات من البقالة المتنوعة الضرورية، ونحضر المراتب والحُصر لنأخذها معنا، ونُصَيِّنُ

الوابورات كلها لتسعفنا هناك في إعداد الطعام والشاي لنا ولضيوف أبي الكثيرين. ترسلني أمي لشراء إبر الوابور الجديدة لكي تستخدمها في تسليك فوهة الوابور، وكميات جاز تكفي لاستهلاكنا لمدة سبعة أيام في المولد. قال لنا أخي بطرس ذات مرة إن «وابور» كلمة فرنسية مشتقة من كلمة «vapeur» ومعناها بخار، وعرفناها من الحملة الفرنسية على مصر، ومَصَّرنا نحن المصريين الكلمة لـ«وابور»، وأطلقناها على كل شيء يعمل بالبخار.

كان أخي بطرس في الجامعة، يدرس الفلسفة، ويحب القراءة، ويحصد منها معلومات تلفت الانتباه إليه، وتثير اهتمام الناس من حوله، وترغمهم على الإعجاب به. لم تكن معلومات أخي تخطر يومًا في بال أيٍّ منا، وكنت أغار منه، وأتمنى أن أقرأ مثله حتى أعرف مثله، وأصبح محل إنصات الآخرين وإعجابهم مثله، ولكنني كنت أحب الرسم ولا أحب القراءة، وإن قرأت فلا أفهم، على الرغم من يقيني بأن الكتب مثل الطائرة، لها تأثير المعجزة، وتعطي قارئيها صفات القديسين الخارقين، تنقلك الكتب إلى أبعد مكان في العالم لتعرفه وتفهم ناسه وحياتهم مثل الطائرة، وتساعدك على صُنع الخوارق والمعجزات والاختراعات التي تعجز عنها عقول الناس العادية، فتُلهمك لتصبح مثل القديسين، تعرف الخير من الشر، وما يغيب عن عقول عوام الناس وقلوبهم، لذا فلا عجب في أن الله، لما رغب في الاتصال بالناس، استخدم في ذلك الكتاب.

كان بطرس مختلفًا عنا كثيرًا، فهو ذو ثقافة أوروبية، على الرغم من أنه لم يسافر إلى أوروبا قَطُّ، والفضل في ذلك يعود إلى

الفرير فرانسو، راهب فرنسي من الرهبنة اليسوعية (أي الجزويت). وهب الفرير فرانسو حياته لخدمة الفقراء في صعيد مصر، حيث جاء في إرسالية وهو شاب ليخدم الناس والله، وسكن في بلدنا في دير الجزويت، وعاش طويلًا. أحب الفرير فرانسو أخي بطرس منذ صغره، وأخذ في تعليمه تعليمًا أوروبيًّا، وأطلعه على نور العقل الفرنسي، وعلمه الفرنسية والإنجليزية، وجعله يقرأ بهما منذ صغره، فنبغ عقل أخي عن عقول بني جيله. ولكن أخي لم يشبه الفرير فرانسو في تواضعه وانسحاق قلبه أمام الناس الذين يخدمهم حتى لو كانوا فقراء جهلاء أقل منه. أخي بطرس ذكي ومغرور، كثيرًا ما كان يتعالى بمعرفته على الآخرين الذين، لولا الفرير فرانسو، لكان مثلهم لا يعرف أصل كلمة «وابور».

أوشية النهر

في فجر أول أيام المولد ـ دائمًا يوم خميس ـ تأتي سيارة ربع نقل، يكون أبي قد اتفق مع سائقها سابقًا، وأضع أنا وإخوتي الأغراض في صندوقها الخلفي والنعاس يغالبنا، ولكن بهجة أي رحلة تفيق بلدًا كما تعلمون. يركب أبي وأمي في الكابينة بجوار السائق، بينما أركب مع إخوتي وحَملي في الخلف، فوق أغراضنا الكثيرة. تسير بنا السيارة إلى شاطئ النيل، وهناك تدخل بنا النهر على ظهر المعدية، تلك السفينة الضخمة التي تنقل السيارات من ضفة النهر الغربية إلى ضفته الشرقية والعكس، لأن المولد على الضفة الشرقية لنهرنا الطيب المقدس، وحتى نصل إليه فعلينا اجتياز عرض النيل، ولم يكن هناك جسر لعبور النيل مثلما في باقي البلاد.

وفي كل مرة ونحن في طريقنا لعبور عرض بحر النيل، كنت أفكر في الغرق بجدية. في هذا اليوم خوفي من السقوط في النهر كان مضاعفًا، لأنني كنت أخاف أيضًا على حَملي من السقوط في النهر لو جاءته نوبة جنون وتنطط من تلك التي تأتيه عندما يكون سعيدًا أو عندما تنتقل سعادتي إليه كما كان يحدث دائمًا بيننا، أو لو سقطت أنا وأنا أحمله في النهر. وعلى الرغم من ذلك الخوف، يغلبني شيطاني كالعادة، ولا يمكنني مقاومة إغواء النظر من فوق الأغراض والسيارة والمعدية إلى أسفل، إلى صفحة ماء النهر، الذي أرى روح الله يرفرف على وجهه الرمادي المخضر، ولا أقدر على أن أغض بصري عن رقصات موجاته الرقيقة الحنونة المتأنية. النيل في روحنا وقلوبنا، فالقلب يضخ الدم، والدم هذا

تكوَّن داخل أجسادنا من الماء، والماء عندنا مصدره النيل وحده، فقلوبنا كلنا تضخ النيل، دماؤنا هي دماء النيل.

أرى في عرض النهر جزائر هائمة من نبات ورد النيل بقوام ورقه السميك القوي، الذي يمتلك أعتى درجات اللون الأخضر، وورد النيل له حق في خضاره المتبجح هذا، فمَن مثله في نضارته، هو الذي يتغذى بلا قيد أو حصة من نهر خصب كريم وهو المصدر الوحيد الذي يجعل المراعي خضراء، ويمد الأرض القاحلة بالألوان؛ نهر روى طوال حياته ملايين الناس، وتشكل من خيراته قوام بني مصر كلهم من جيل إلى جيل، وإلى الأبد. آمين.

خلال الرحلة بالمعدية أنظر إلى النيل بين الحين والحين بنظرات شقية مسروقة، ولا أطيل النظر إلى أسفل، لأني أتذكر تحذير أمي الدائم عندما أتسلق شرفة المنزل أو سور سطوحه وأنظر إلى الشارع حيث أصدقائي، فتقول لي أمي إنني يجب عليَّ أن أحذر حتى لا يثقل رأسي وأنقلب في الشارع، لأن أمي وكل نساء شارعنا وأسرتنا يعتقدن أن رأس الإنسان أثقل من جسده، ولكني لم أكن أعلم هل حَملي الوديع هذا مثلي، رأسه أثقل من جسده أم لا، وهل بإمكان الحملان العوم أم لا، ولكني كنت أعرف، كما أعرف نفسي، أن الكلاب تعوم جيدًا وتعبر النهر سريعًا وتصل حتى قبل الإنسان.

في يوم «الجمعة الطويلة» التي نحتفل فيها سنويًّا، عبر الحزن والصوم والجوع والعطش، بصلب المسيح على يد الرومان كي يرضى اليهود ويهنأوا، كنا نفطر كلنا في بيت جدتي عند

الغروب؛ فول نابت وطعمية وسلطة خضراء، وأمي ونساء الأسرة يوزعن مهام تحضير هذه المأكولات بينهن تحت إشراف جدتي، الخبيرة في طقوس هذه الأيام المباركة. أمي وحدها تقلي الطعمية بيدها، لأن أبي يقرف من كل الناس إلا من أمي وأمه. تأخذ أمي قطعة عجينة خضراء ثم تبططها بيدها من الناحيتين، وبعدها تنظم حواف قرص الطعمية وتديره، وتضعه على كفٍّ من كفيها، ثم تبلل يدها الفارغة في وعاء به ماء كي تُليِّن بأصابعها القرص بعد تشكُّله واستدارته، وفي النهاية تلمس أطرافُ أصابعها صحن سمسم، تُزين به وجهَي قرص الطعمية بالحبات الذهبية، وتضع القرص في الزيت الساخن وهي تذكر لنا، نحن الصغار، أننا نصنع قرص الطعمية بهذا الشكل ليُذكرنا بالحجر المستدير الضخم الذي أغلق به القبر على المسيح، وأن كل يوم يمر علينا ونحن بخير هو عيد.

وفي تحضير وليمة إفطار الجمعة الطويلة تقوم جدتي بالمهمة الأسهل ولكنها الأهم، وهي قَدحة وحِياق(*) الفول النابت الذي نقعته في الماء قبل يوم الجمعة الطويلة بثلاثة أيام، تُخرجه في اليوم الثالث من الماء فتجد حبة الفول اليابسة الصلبة قد لانت وانفجر جانبها، وأنبتت نبتة بيضاء شابة تسعى إلى حياة جديدة. وتقول لنا جدتي إننا نغمس الفول في الماء قبل الجمعة الطويلة لمدة ثلاثة أيام «لأن هذا ما حدث مع سيدكم المسيح عندما دُفن في القبر وقام في اليوم الثالث».

ذات مرة، في يوم الجمعة العظيمة أو «الجمعة الطويلة» كما تسميها جدتي ونسميها كلنا، بعد أن خرج الصائمون من الكنيسة قبل غروب الشمس بقليل، قال خالي الصغير:

ـ أين الماء؟ الماء أهم من الطعام.

فقال أبي، الذي يكره الصيام وعذاب انقطاع الشاي، ولكنه يحرص على صوم أكثر الأيام مشقة وأهمية، وهو الجمعة العظيمة:

ـ الواحد بعد الصيام لو طال النيل يشربه.

فتدخَّل أخي بطرس بعقله الذي كان دائمًا يأتي بالبعيد ويُحنطره في وسطنا بلا داعٍ أو طلب، وأخبرنا بأن المصريين القدماء قدسوا النيل وجعلوا له إلهًا في بعض الفترات، فوافقه خالي الكبير، وهو بروتستانتي تقي متدين، حرَّم على نفسه وأولاده الشفاعة بالقديسين وتقبيل الأيقونات والذهاب إلى المولد معنا، وأكمل على ما قاله بطرس وقال:

ـ لأن قدماء المصريين كانوا كفارًا يعبدون الأصنام والشيطان، ويضطهدون اليهود شعب الله المختار الموحد بالله.

فاعترض أخي بطرس، وقال وهو يُقرْمِش قرص طعمية من أول إنتاج أمي:

ـ المصريون القدماء معذورون، فهم لم يكونوا يعرفون الله، والله لم يعلن عن نفسه لهم، بل هم مَن بدأوا مشكورين بالبحث عنه. بحثوا عنه في كل مصدر للحياة حولهم، تارة اعتقدوا أنه الشمس، فتخيلوا الأرض بدون الشمس، بالتأكيد لمَا كان فيها نور، وتارة اعتقدوا أنه فرعون الحاكم بالحق والعدل، وبدون فرعون لم يكن

في أرض مصر عدل أو حق، وتارة عبدوا النيل، تخيل أرض مصر بدون نيل، بالتأكيد لمَا كان فيها نسمة حياة واحدة، والله نفسه في كتابه المقدس قال عن نفسه بعد ذلك بسنوات طويلة: «أنا هو نور العالم»، و«أنا هو الطريق والحق والحياة»، وهي بالفعل الصفات نفسها التي بحث فيها أجدادنا المصريون عن الله، النور في الشمس، والحق في فرعون، والحياة في النيل.

بعدما أتى بطرس على قرصي طعمية ساخنين أنهى كلامه بجملة:

ـ حقًّا كانوا عباقرة، خير سلف.

كما كان يحب دائمًا أن ينهيه عندما يتحدث عن القدماء المصريين، ثم امتلأت ملامح وجهه بتعبيرات تمزج بين الإعجاب والندم والتفوق على الآخرين بالانتماء، فتدخلت أمي لتنهي النقاش الساخن الخشن، وهذا ما كانت تفعله دائمًا؛ تتدخل لتنهى أخي عن أحاديثه الغريبة كي لا يكرهه الناس أو تسوء سمعته بين الأسر فيرفضوا زواجه من بناتهم وهو على «وش» زواج. وقالت:

ـ حِياق الطعمية مضبوط يا بطرس أم يحتاج إلى ملح؟

فقال لها:

ـ لا أتذكر.

وطلب قرصًا مستديرًا آخر ليختبر المذاق مجددًا.

ذكَّرني ما قاله خالي عن اضطهاد المصريين لليهود بدرسنا ذات مرة في مدارس الأحد بالكنيسة عن صراع موسى واليهود الذين كانوا في مصر، مع فرعون والمصريين، لكي يخرجوا منها، بعد أن أرسلهم الله في عنايته ضيوفًا لاجئين إليها في زمن يوسف، ثم أراد الله أن يُخرج بني إسرائيل من أرض مصر، وكنا سعداء جدًّا بما فعله الله في المصريين ليحرر اليهود، شعبه المختار: الضربات العشر، وشق البحر لليهود ليعبروا ثم إعادة الله له على رأس جيش مصر لكي يغرقهم. وسعدت مع مَن سعدوا من الأطفال بهذه الإجراءات الإلهية لإنقاذ شعب الله وإهلاك المصريين. ومساءً ونحن على العشاء، حكيت لأسرتي ما قالوه لنا في الكنيسة، وشعرت إزاء ذلك بانتصار كبير وشماتة في فرعون مصر وجيشه من شعب مصر. لم تكن القصة جديدة بالنسبة إلى أهلي، ولكنها كانت جديدة ومبهرة بالنسبة إليَّ، وكعادة أخي بطرس الذي لا يرى الأشياء مثلنا ـ حتى أكثر الأشياء قداسة وثباتًا، يقول رأيًا غير شائع فيها ـ قال لي بثبات وهو يغمس لقمته في صحن عسل:

ـ يا صموئيل، لو كنت تعيش هذا الزمان، فإلى أي قوم كنت ستنتمي؟ إلى اليهود أم إلى المصريين؟

قلت له:

ـ أنا مصري، ولو عشتُ هذه الأيام لظللت مصريًّا لأبوين مصريين بالطبع.

فقال لي بعد أن مضغ لقمته جيدًا وبلعها:

ـ إذن يا أذكى إخوتك، ما دمت مصريًّا فلمَ أنت فرح الآن؟! كان سيصيبك ما أصابهم من وقوع البلاء العظيم، فالنهر المقدس لدى المصريين تحول في الضربة الأولى من الله إلى دم، ولم يجد آباؤنا المصريون مصدرًا للماء يشربون منه، فحفروا حول النهر لأجل ماء بلا دماء ليشربوا، فأنا المصري وأنت وكل أهلنا وأصدقائنا وأطفالنا وحيواناتنا، كيف كنا سنرتوي في هذه الأيام؟

ثم مد بطرس يده إلى أقصى الطبليَّة أمامي وتناول رغيف خبز، وقبل أن يقطعه قال:

ـ يا أخي، في الضربة الخامسة عندما يضع الله يده على المواشي التي في الحقول، على الخيل والحمير والبقر والغنم، فحتى إن كانت أسرتنا لا تملك خيلًا ولا حميرًا ولا بقرًا، إلا أنك تملك حَملًا مثلًا تحبه ولا تفارقه، وتبكي عليه إن ضاع دقيقتين، الله كان سيقتله في الضربة الخامسة لأنه بكرك.

نَعَتني بطرس بالأبله لأن ذلك كان خرابًا لبيوت المصريين. وفي أثناء حديثه وضع لقمة في فمه، وأخذ يلوكها ويتحدث، فيخرج من فمه المنفعل فتاتُ الطعام مشبعًا بكلامه عن الضربات العشر، ثم وجد صعوبة في بلعها، وطلب ماء ليشرب، فناولته أمي كوب الماء الألومنيوم غير مستوي الحافة والأجناب من كثرة ما وقع على الأرض واصطدم بها، فضاعت ملامحه الأصلية القديمة كلها وكادت تُطمس هويته، ولكنه ما زال يَصلح للاستخدام ككوب، فأمسك بطرس الكوب من عروته، وساعده الماء على البلع بسهولة، وبعدها قال في علاء وألم:

ـ الضربة العاشرة كانت أكثرها قسوة علينا نحن المساكين المصريين، نحو منتصف الليل، أمات الرب كل بكر من أبناء أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكان صراخ عظيم في كل أرض مصر، لم يكن مثله ولن يكون، لأنه لم يكن هناك بيت ليس فيه ميت.

ثم لامني بطرس بما لست طرفًا في صنعه وقال:

ـ لو عاشت أمك المسكينة هذه في ذلك الزمان كمصرية، لكانت ماتت من حسرتها على موت أخيك البكر الذي هو أنا بطرس، المتعلم تعليمًا عاليًا وتفتخر به وسط أقاربها وجيرانها، من أثر ضربة الرب العاشرة، لا من السرطان الذي نخشى عليها منه.

ثم انفعل من حديثه نفسه وقام وهو يقول:

ـ أفهمت يا مُدلل أمك أنت، أيها المعجب المتفاخر بتدليل الله لليهود؟!

ذهلنا كلنا، أغضبنا الكلام، كان كلامه دائمًا مختلفًا عن كلام الكنيسة، كلام يؤرق القلب ويوجع الدماغ، ولكن لم يجد أحدنا ردًّا على أخي المتغطرس بطرس، أظن أنه لم يكن هناك رد، أو ربما لأننا لم نكن أهلًا للرد عليه.

أوشية الغرق

شتَّت سرَحاني صوت مداح بربابة كان يركب معنا المعدية، بجلباب بُني غامق وجسد هزيل، ووجه جائع صغير كالسنبلة، بلون قُلَّة الفخار القديمة، التف الركاب من حوله وبدأ يغني ويعزف كما لو أنه في الأحلام:

رشوا الورد يا صبايا

رشوا الورد والعطور

قدام الصبية جاية

لابسة قميص مقصور

ومخبية رب البرايا

بين القمصان والصدور

يرضع الحليب ويشرب

والختوم متكننة

كنا قد وصلنا إلى الضفة الشرقية للنهر أسفل جبل الدير، وطلب رئيس المعدية من الركاب النزول من سياراتهم والخروج من المعدية سيرًا على الأقدام، على السقالات، حتى تخف الحمولة

عن الجسر الحديدي المخصص لمرور السيارات، لأن الأرض هشة ها هنا.

وقف أبي على السقالة ـ التي بلغ طولها نحو ثلاثة أمتار وعرضها حوالي عشرين سنتيمترًا فقط ـ بجسده الضخم وعضلات كتفيه المفتولة، يرفعنا أنا ثم أختي، ويعبر بنا السقالة إلى الشاطئ. حمل أختي الصغيرة أولًا، ثم حملني، وحَمَلي على كتفيَّ، ثم ساعد أخي بطرس على العبور. وجاء دور أمي، فأمسك يدها بحنان وسار أمامها. لكن أمي شعرت بدوختها المعتادة منذ أن عرفت المرض، وفقدت توازنها في تلك اللحظة، فسقطت من على السقالة في النيل.

صرخ الواقفون جميعًا، وذُعرت أنا وإخوتي ذعرة العمر. ارتمى أبي سريعًا بطوله على السقالة حتى غطى طولها تقريبًا بجسده الضخم، ولكن جسده بقي أعرض من السقالة فأصبح كأنه نائم على الهواء فوق النهر. ومد يده إلى يد أمي في الماء، وأمسك بها، وأخذ يرفع أمي، ولكن الماء جعل أيديهما تنزلق، وسقطت أمي، وجرفها النهر تحت المعدية الضخمة. خلع أبي جلبابه، وأعطى أخي بطرس محفظته الجلدية المستطيلة، المكتظة بالنقود التي ادخرها طوال عام لتكفينا في أسبوع المولد، وقفز في النهر خلف أمي، فابتلعته هو الآخر ضخامةُ المعدية التي ترسو على الشاطئ وتحجب علينا من طول النهر نحو ثلاثين مترًا، ومن عرضه أكثر من عشرة أمتار. ناح الواقفون وقالوا:

ـ الرجل وزوجته ماتا!

وقال رئيس المعدية وهو يضرب كفًّا بكف:

ـ سحبتهما المعدية؟ وقعة سوداء، لو تعلمون وتسبحون، هذا نوع من العوم صعب للغاية، إذا لم يتحكم الرجل في النهر ببراعة ويسيطر عليه ويُخضعه لسلطانه، فسترفعهما المياه ويصطدم رأساهما بقاع المعدية الحديدي، والله يستر.

وقال آخر:

ـ والعوم يا ريس في النهر أصعب من العوم في البحر، لأن المياه غير المالحة أثقل عند التجديف فيها بذراعيك وقدميك.

وقالت امرأة:

ـ لا تنسوا أنه ينقذ غريقًا مذعورًا يصعب السيطرة عليه.

وقال المدَّاح فخَّاري اللون بعد أن وضع ربابته السوداء على رأسه كامرأة في مأتم:

ـ هون علينا بالفرج كل أمر عسير، وارضَ علينا يا مهون يا خبير.

في جزء من اللحظة، شعرت أنا وإخوتي بفقدان كامل للحياة، وضياع كل شيء فيها، وبدأ الناس يواسوننا. وبعد حوالي دقيقة، خرج أبي إلى سطح الماء من الناحية الأخرى للمعدية، يحمل أمي مثل أبطال حكايات الربابة والمداحين وسِيَر القديسين الأبطال، فقد سبح غاطسًا بعمق قاع المعدية وبعرضها، وخرج بأمي من

الناحية الأخرى للسفينة العملاقة. احتفى به الناس كبطل، وأهداه المدَّاح لحنًا راقصًا وقال:

قابلتني موجة، أنا ورُحت ليها

هبت رياح ومالت لي العين، العين

لا لاقي صخرة أقف عليها

ولا أنا طايل البر فين، فين

وصاح الناس وردوا عليه باللحن نفسه، كما لو أنهم حفظوه كالنشيد المدرسي في طابور الصباح، فترنم المدَّاح مُبشرًا بكلمات جديدة لها اللحن نفسه، بمزاج أروق بكثير هذه المرة، موجهًا كلامه إلى أبي وحده وراقصًا حوله بالربابة:

روحك ولا نفسك اللي كانت بادية

ما تعلمش يا ابني بالمقادير الخافية

وتقول ما تقول، أفكارك هادية

السفينة يا ابني على البر أهي راسية

بلغ الركاب ذروة السلطنة بهذا المقطع، وسرعان ما أفاقت أمي، فاحتضنها أبي وقبَّل جبينها، وبدأت الرحلة.

أوشية المساكين

مثل كل عام، عِشنا أسبوع المولد في «بيت المساكين». وكانت عائلتنا، أبًا عن جد، تقيم أسبوع المولد في «بيت المساكين»، وهو بيت لأسرة قبطية من البسطاء يطلق الناس عليهم «المساكين»، وعلى بيتهم «بيت المساكين». أغلب بيوت جبل الدير الذي يقام عليه المولد من بيوت الأقباط؛ بيوت بسيطة، مكونة من طابقين وحجرات متعددة، يملكها أهالي القرية ويؤجرون غرفًا فيها لزائري المولد ليعيشوا معهم، مقابل أجر معين في الليلة أو مقابل ربع الأضحية التي يذبحها الزائرون للعذراء، أي ربع حَمل.

وليس «بيت المساكين» من أفضل بيوت جبل الدير للسكن في المولد، ولكنه أعرقها وأكثرها شهرة، فهذه الأسرة لها حكايتها. قبل ألفَي عام، كان جد المساكين جالسًا على تل كبير في مدخل قريته يرعى غنمه، ووجد أغرابًا يدخلون القرية؛ رجل عجوز يجر حمارًا عليه امرأة شابة جميلة وطفل رضيع. اقترب منهم، فإذا بها العائلة المقدسة الهاربة إلى مصر بحثًا عن الأمان وسعيًا لحماية طفلها من القتل. طلبوا أول ما طلبوا ماءً ليشربوا، فسقاهم جد المساكين من قربته، ورافقهم وخدمهم بدون مقابل طوال مدة إقامتهم في القرية. ومنذ ذلك الحين وسكان «بيت المساكين» ينذرون أنفسهم وديارهم، جيلًا بعد جيل، لخدمة العذراء وزوارها في المولد. ويعامل الناس «بيت المساكين» معاملة استثنائية، بحكم أنهم من الأشراف الذين شُرفوا باستقبال الطفل يسوع وأمه القديسة والنجار العجوز الطيب راعي العائلة المقدسة.

في واجهة «بيت المساكين»، فوق باب المدخل الخشبي الضخم المرصع بالصلبان الخشبية المتعرجة، كُتب بالطباشير وبخط سيئ، أسوأ من خطي:

طوبى للرحماء على المساكين فإن الرحمة تحل عليهم

وفي مدخل «بيت المساكين» كان جوارجيوس المسكين يجلس على دكة بوجهه الدخاني، متجهمًا، شارد الذهن، على ثغره ابتسامة رضا حزينة، وعيناه غاطستان كباب كنيسة قديمة، حافي القدمين ولا يبالي بالعالم من حوله. والدكة التي في مدخل «بيت المساكين» عادية ولكنها غريبة الإنارة، تشبه الهلال في نصف الشهر القمري؛ نصفها يُنيره ضوء النهار القادم من باب البيت، ووسطها منطقة باهتة بين النور والظلمة، ونصفها الآخر مظلم، شديد العتمة. ألقى أبي السلام على جوارجيوس المسكين باشتياق، فلم يرد جوارجيوس عليه أو ينظر إليه، كأننا هواء. كنت أنتظر أنا منه أن يلاقيني بترحاب، مثلما توادعنا العام السابق بحرارة، لكنه بقي كأنه لم يعرفني قَطُّ.

«بيت المساكين» بدايته نور الباب ونهايته نور بئر السلم، وبينهما ظلام قبر ورائحة رطوبة عطنة تمتزج برائحة الماعز وفضلاتها، فالحيوانات تعيش في البيت ذي الأرضية الترابية مع السكان بسلام. رحبت بنا أم جوارجيوس المسكين، أم المساكين، وأخذتنا عبر السلم الحجري، ومررنا بـ«الحضير»(**) وصولًا إلى الغرفة التي نقطنها كل عام، وكانت كما عرفناها، لا باب يغلقها ولا تغيير فيها. والغرفة مستطيلة واسعة، مساحتها حوالي أربعين مترًا، حوائطها من حجر اسمه «الدبش»، كُسر من جبل

الدير، وهو عبارة عن حجارة غير مستوية، وليس لها شكل هندسي محدد أو معروف في الحساب، وهذا الدبش مثبت بعضه فوق بعض بواسطة طين مغموس بتبن يساعد على التماسك، مكوِّنًا حائطًا، والسقف ثابت بعروق خشبية مدخنة اللون، سمراء كوجه جوارجيوس المسكين، وهي عبارة عن أرباع نخلة شقت بالطول، ووُضعت مستقيمة بعرض السقف، وبين العِرق والآخر مسافة متر بالإحساس وليس بالضبط، فالمسافات متفاوتة بشكل عبثي جدًّا. وتلك العروق مغطاة بجريد نخيل جف وقصدر، وغلب صفاره على لونه الأخضر الأصلي، ثم غطاه اللون الرمادي نتيجة تراكم الأتربة القديمة عليه إلى حد ابتلاعه. ومع الجريد يوجد بوص أسطواني أصفر طويل، جف كالصحراء فأخذ لون الرمال، متراصٌّ بعضه بجوار بعض، وهذه السقوف الهزيلة تحمي الغرفة من الشمس ولكنها «مثل قلتها» في الأمطار. ولأن المولد في الصيف، فلا مطر ـ بلدنا لا تمطر في الصيف ـ فالبوص والجريد، على الرغم من جفافها وهشاشتها وبؤسها، كانت تؤدي الغرض.

وضعت حَملي على الحضير خارج الغرفة وقيدته، ودخلت أساعد في رص أغراضنا في أماكنها التي حفظناها بحكم العادة وتكرار الزيارات السنوية. في آخر الغرفة، أسفل الشباك، نضع مرتبة أبي، وهي أفضل مراتب بيتنا. أتذكر الآن حينما كنا نثور على امتيازات أبي في البيت، مثل أن لسريره العالي مرتبتين وثيرتين، ومثل طبقه الممتلئ بأكبر قطعة لحم، فتجيب أمي إجابتها الثابتة، وتقول لنا من وقت إلى آخر: «إن أباكم شقيان علينا طول النهار فيجب أن يتغذى جيدًا ويكون أكثرنا راحة في النوم طوال الليل». وبجوار مرتبة أبي نضع مرتبة أخرى، وفي باقي فراغ الغرفة

نضع حُصرنا من البلاستيك، وحصرًا أخرى يوفرها «بيت المساكين» من قشر القصب الجاف الطويل، تحكم تجاورها خيوط مضفورة من خيش مرن وخشن بلون الخشب. وعند الباب وضعت أمي الوابور، الذي فقد لونه النحاسي الأصلي وأصبح أسود كليلٍ غير مقمر وبلا نجوم. تبعد أمي الوابورات عنا أمتارًا، كالعادة، كي لا تصبغ رائحة الجاز وبخاره الغرفة وتتعلق بملابسنا فتفسد رائحتها، وبهدف السلامة أيضًا، تحسبًا لأن ينفجر الوابور فينا وفي أغراضنا، فمن عادة الوابورات أحيانًا أن تنفجر إذا زاد التكبيس بالمكبس في جانبها عن الحد المسموح به لزيادة إشعال نيران فوهته.

طلبت مني أمي أن أنزل معها إلى الدور الأرضي حيث المرحاض. في «بيت المساكين»، كما في كل بيوت جبل الدير، حمَّام واحد بلدي مظلم، ليس به صنبور ماء للاستحمام أو التشطيف، فهو للتبول والتبرز فقط، ويُستخدم دلو به وعاء صغير للتشطيف بعد التبرز. أخذتني أمي كي أقف لها على الباب لأنه يفتح للخارج ولا يغلق من الداخل. ولقضاء حاجتك في مرحاض «بيت المساكين» يا إنسان عليك أن تجلس القرفصاء، وتسحب الباب صوبك بشده بإصبع تخرجه من ثقب فيه يتسع لإصبع أو إصبعين على الأكثر، كي لا يسحب أحدهم الباب ويدخل عليك المرحاض وأنت عارٍ. الباب خشبي، يشبه خشبه التبن الأصفر الملصوق والمضغوط مكوّنًا لوح خشب ضعيفًا وخفيفًا. وقد اعتدنا، عند ذهاب إحدى نساء العائلة إلى حمَّام «بيت المساكين»، أن يرافقها رجل من العائلة، مثلي كي يقف على الباب. وقبل أن تدخل أمي إلى الحمَّام جاءت إحدى المستأجرات

معنا في «بيت المساكين»، ولم نكن نعرفها، واستأذنت أمي بأن تقضي حاجتها قبلها، وقالت:

ـ بعد إذنك يا أختي مزنوقة في ملعقة ماء.

وتقصد أنها ستتبول سريعًا كمية صغيرة من البول. فسمحت لها أمي بأخذ دورها، ثم دخلَت بعدها. وأنا واقف على باب المرحاض، نزل حَملي من على الحضير مسرعًا، ثم هبط السلم متجهًا نحو باب «بيت المساكين»، وكأنه يرى شيئًا ما ويتبعه، ويسمع نداء ويلبيه، وخرج إلى الشارع. ناديت عليه وهو لا يبالي، كنت أرغب في أن أجري وراءه كي لا يضيع في الشوارع ويسرقه أحد، لكنني كنت ممسكًا بباب المرحاض المغلق على أمي في الداخل ولا أستطيع تركه، وظللت أنادي على الحَمل وأصرخ وأبكي، إلى أن خرجت أمي من المرحاض مسرعة واحتضنتني وقالت لي:

ـ ما الذي يبكيك يا حبيبي؟

قلت لها والدموع في فمي:

ـ حَملي ضاع.

خرجتْ معي لنبحث عن الحَمل في شارع «بيت المساكين»، فلم نجد له أثرًا. حزنت أمي مع حزني، وصعدت لتخبر أبي بأن أضحيتنا قد فُقدت.

جلست على الدكة الفارغة في مدخل البيت، أدس رأسي بين ركبتيَّ وأبكي في صمت، وبعد برهة سمعت صوتًا يقول:

ـ الراعي الصالح، الخراف تتبعه لأنها تعرف صوته.

رفعت نظري نحو مصدر الصوت فوجدت جوارجيوس المسكين، يضع حَملي على رقبته ويمسك قدمَي الحَمل الخلفيتين بيده اليمنى، وباليسرى القدمين الأماميتين، وينظر إليَّ نظرة مخلص، وكأنه رجل آخر بمزاج آخر، غير الذي تجاهلنا منذ قليل عند حلولنا ضيوفًا مستأجرين على بيته. وقفت على الدكة وأخذت حَملي من على كتفيه، واحتضنت الحَمل وقبَّلته، وقلت لجوارجيوس المسكين:

ـ وكيف أُصبح راعيًا صالحًا؟

ففرد يديه على الجانبين بمحاذاة كتفيه فأصبح يشبه صليبًا من لحم في الظلام، وقال:

ـ الراعي الصالح يبذل نفسه عن رعيته.

فقلت له:

ـ علمني يا عم جوارجيوس.

فأجابني بإجابة غامضة، أقرب إلى العَبَط كإجاباته دائمًا وقال:

ـ احلق شعرك واتبعني.

ثم ذهب وغيَّبته غرفة شديدة الظلمة والغموض، فتجاهلت رحيله وتقلباته كموج البحر وحال الدنيا، وظللت ألعب بفراء حَملي وأربته للخلف لأعوضه عن دقائق فراقنا.

* * *

جوارجيوس المسكين من أبناء عائلة المساكين، رجل وجهه مسكين كلقبه، وهو في عمْر أبي، طفل ضخم، عقله في عمْري وربما أصغر، وقلبه من عمْر الدنيا. أثناء حمل أمي بي، أتت المولد في شهور حملها الأخيرة، وتنبأ المسكين لها بأنها ستنجب ولدًا، واختار له اسمًا. فاستجاب أبي للاسم الذي اختاره المسكين بعد أن تحققت نبوءته وجئت ولدًا، كما قال المسكين وكما رغب أبي وتمنى.

أحب أن أسمع قصص أبي عن المسكين. بدأت صداقتنا تزداد في اليومين الأخيرين من مولد العام الماضي. أعطاني المسكين بلحة، وقال لي وقتها أيضًا:

ـ احلق شعرك واتبعني.

وعندما أخبرت أخي الكبير بطرس، قال لي بغرور:

ـ يا عبيط، ماذا تنتظر أن يقول لك عبيط؟

والناس من سكان جبل الدير، قريته، يتباركون بجوارجيوس المسكين، لأن جده استقبل العائلة المقدسة، ولأن العذراء ظهرت لأمه التي تأخرت في الإنجاب، وأخبرتها بأنها، كرامة لجدها

المسكين الكبير وما صنعه مع العذراء وأسرتها من معروف، ستصبح أمًّا:

ـ ستكونين أمًّا مثلي، وتلدين ابنًا يدعى جوارجيوس. سيشقى في حياته ويظنه الناس مجذوبًا، ولكنْ في داخله قلب يسع العالم كله.

وتحققت نبوءة القديسة العذراء مريم، وعند ميلاد جوارجيوس ظهر نور في ليل القرية، وكأنه فجر مخصوص جاء من السماء في غير موعده ليلقي ذهبه على سطوح بيوت جبل الدير، وانتشرت رائحة بخور حلوة وصلت إلى القرى المجاورة.

كان جوارجيوس المسكين طفلًا غير عادي، يصنع الأعاجيب، وهو لم يلتحق بمدارس ولكنه يحفظ الإنجيل والحكم كما أحفظ أنا الأغنيات والمواويل والمدائح، ويتحدث مثل أخي عدة لغات ولكنها لغات قديمة، لهجات من القبطية، ولغات أخرى لا نعرف ماذا تكون. يسمع المسكين الآية مرة واحدة فتثبت في ذاكرته. في ساعده الأيمن حرق من يد المسيح، التي أمسكت به قبل أن يسقط وهو طفل من على قمة جبل الدير، وقال له المسيح قبل أن يختفي:

ـ سيكون لك دور عظيم في هذا الدير.

هذه حكايات أبي وناس جبل الدير وزواره عن «بيت المساكين»، بينما أخي بطرس كان رأيه دائمًا في جوارجيوس المسكين أنه خير مثال على عظمة روح الإنسان وجهالتها.

وجوارجيوس المسكين رجل أسمر ونحيف، يصدر من وجهه الدخاني إيحاء بالنور، ولكنه وجه عادي لم أعرف سبب النور فيه. يرتدي جلبابًا متسخًا وقلنسوة بيضاوية سوداء تشبه طاقيات القساوسة والرهبان، ويعلق في عنقه خيطًا من الصوف، يتدلى منه صليب مضفور من سعف النخيل طوله حوالي شبر. يقولون إنه يصوم سنويًّا خمسة وخمسين يومًا بدون أكل أو شرب، ولكن جوارجيوس لا يرد على ذلك عندما يسمعه من أحدهم. يشرب المسكين المياه من النيل مباشرة في كفه، ويقول بعضهم إنهم رأوه يمشي على الماء، ويعبر النهر على حزمة من البوص. ويقول آخرون: «لا، إنها لم تكن حزمة من البوص، بل كان يمشي على الماء فوق منديل من القماش». هو شخص متقلب المزاج، وكثيرًا ما يذهب في سرحان لا يقطعه عنه شيء، حتى لو حدثته لا يرد. يحب الحمير، ويرى أن الحمار ذكي ومتواضع ورفيع المقام، لأنه حمل على ظهره أقدس بني البشر؛ يقصد الصبي وأمه العذراء. ويكثر جوارجيوس المسكين من أكل البلح الأحمر؛ يأكل نصف البلحة العلوي فقط، يقطمها من منتصفها حتى يصل إلى النواة الصلبة، ويقسمها نصفين بأسنانه بشكل دائري، ويرمي نصفها الذي هو ناحية الساق. وناس جبل الدير يبررون له أفعاله المجذوبة بشكل مثير. ذات مرة ضرب أحدهم بحجر فتح له رأسه بدون سبب أو داعٍ، وبعدها جاء الرجل المجني عليه معتذرًا عن خطاياه، لأنه علمً أن جوارجيوس المسكين فتح رأسه لأن بها أفكارًا شريرة!

إذا بحثت عن جوارجيوس المسكين ولم تجده، فسيكون عند الشجرة «العابدة»؛ تلك الشجرة العتيقة في الطريق البري لجبل الدير، التي سجدت للعائلة المقدسة عند مرورها على الطريق

نفسه، وكأن الطبيعة تتعبد لابن خالقها وأمه البتول خير النساء. وكثيرًا ما يأكل جوارجيوس المسكين من أوراق هذه الشجرة؛ يأكل ورقة ويضع أخرى في جيب جلبابه بجوار قلبه.

* * *

ناداني أبي من الغرفة في الطابق العلوي لـ«بيت المساكين». صعدت إليه ومعي حَملي، فقال وهو جالس جلسته المقصوعة على المرتبة، وتحت كوعه الأيسر وسادتان، وأمامه الشيشة التي ملأ دخانها ربع الغرفة الداخلي:

ـ الحَمل معك! أمك تقول إنه تاه. أوقعت قلبي فليس لنا فائض من المال لشراء ذبيحة أخرى.

فقلت له بوجه كرمشته انفعالات الحزن:

ـ أبي، لماذا تقول عن الحَمل «ذبيحة»؟

فانتظر حتى عدل «الكالوح»(***) المتقد فوق حجر المعسل بالماشة لكي يشتعل الحجر أكثر فأكثر، وقال:

ـ لأنه سيُذبح بعد أسبوع، في آخر يوم في المولد.

قلت كمَن يعرف أن شيئًا سيئًا سوف يحدث فيما بعد ولكن التأجيل يريحه، وعندما يقترب حدوث ما يخشاه يشعر بفجاعة السماع عنه للمرة الأولى:

ـ يُذبح! ألم تعدني يا أبي بأنه لن يُذبح أبدًا؟!

فقال ساخرًا بعد أن أخرج دخانًا كثيفًا بطريقة معلم عتيق يعرف ألاعيب صبيانه:

ـ ليس معنى أننا نستأجر غرفة في «بيت المساكين» العبايط أن تصبح عبيطًا مثلهم أنت الآخر.

ضحك إخوتي من نكتة أبي، ولكن ضحكهم لم يغضبني، كان ما يرعبني حقًّا هو أن يَذبح أبي حَملي. فقلت له بعد أن سكنت القهقهات:

ـ ولكني سأميت نفسي بالسكين نفسها إذا ذبحتَ حَملي، أنا راعٍ صالح وعليَّ أن أبذل نفسي عن رعيتي.

فقال أخي بطرس متهكمًا، متعاليًا، بأداء مذيع راديو يعلن عن بدء برنامج:

ـ «المسيح يُصلب من جديد» تأليف نيكوس كازنتزاكيس.

وضحك وحده لأن أحدًا منا لم يكن يعرف هذه القصة، ولا كنا نستطيع أن ننطق باسم مؤلفها من المرة الأولى مثل ذلك المغرور أخي. نظر إليه أبي بضيق، وضاعف من ضيقه انطفاء «كالوح» حجر المعسل بسبب الأخذ والعطاء في الكلام بدون سحب منتظم من الحجر، ثم لف اللَّي على الشيشة ونظر إليَّ وقال:

ـ يا بني يا حبيبي هناك حيوانات يربيها الإنسان ويرعاها حتى تسمن وتؤكل، وحيوانات أخرى يربيها الإنسان ويعتني بها لتؤنس وحدته ولكنها لا تؤكل. هذا الحَمل جئنا به خصيصًا لنذبحه نذرًا لأم النور كي تشفي أمك المريضة، فاقتدناه أساسًا هنا معنا للذبح.

فأجبته بحجة قوية، ولكني كنت أعرف أنها لا تساوي في نظر أبي «حتة تعريفة»، وقلت:

ـ ولكني أحببته!

ففرغ صبره، ونظر إلى الشيشة كأنه يستجمع ردًّا، فتذكر بسببها أن الدنيا كلها قد تآمرت عليه في التو واللحظة لتعكر مزاجه، وقال بعد تغيير لهجته لاختصار الموضوع:

ـ ستنساه بعدما تأكل لحمه الشهي وتشرب مَرقته اللذيذة وملوخيته الخضراء.

فقلت في رجاء، كي أعطي للحوار قُبلة حياة أخرى وأفتح له ثقب نور في قلب أبي:

ـ أبي أرجوك لا، لا يمكنني حتى التخيل.

فتدخل أخي المتعالي بطرس وقال:

ـ أتسمح لي يا أبي بكلمة لابنك وكلمة لك؟

فقال له أبي بضيق وسخرية:

ـ أهلًا بالدكتور طه حسين، تفضل يا سيدي.

وجَّه إليَّ كلامه، وكان متربعًا، ممسكًا في يُمناه بكتاب يثبته بإصبعيه الإبهام والوسطى، بينما يضع سبابته في قلب الكتاب على الصفحة التي يقرأ فيها حتى لا تضيع، وقال:

ـ يا مدلل أمك أنت، الحملان للذبح والأكل، والله أحل لنا ذلك، أأنت أكثر رحمة من الله على مخلوقاته؟

ثم نظر إلى أبي وعدَّل من جلسته المربعة، حيث رفع رجله اليمنى وثبَّت قدمها الحافية على الحصير، وقال:

ـ وأنت يا أبي، أتظن أن الله ينتظر رشوتك وذبيحتك كي يحقق لك طلبًا؟ هذه معتقدات خاطئة، خاطئة مثل هذا المولد الذي تحضروننا إليه كل سنة لنتبارك بأيقونات وحجارة قديمة، وقصص المساكين العبايط الذين استقبل جدهم العائلة المقدسة، هذا كله سيحاسبنا الله عليه.

فقال له أبي ساخرًا:

ـ وأنت الصادق تأتي للدير لتتعبد قوي، ما شأنك أنت بالعبادات وأنت طوال أيام المولد تلف في السوق مع ابنة القسيس؟

فضحكنا على أخي جميعًا، فخجل ونظر في كتابه، ثم نظر إليَّ أبي وهو يعبث في جوال أبيض يمتلئ نصفه بـ«الكالوح»، لكي ينتقي كالوحتين يعطيهما لأمي تشعلهما على النار لبدء حجر

معسل جديد يصلح به أضرار حماقتي وفذلكة أخي وضياع الحجر السابق على مزاجه، وقال كأنه ينهي الحوار:

ـ وأنت الآخر، اربط الحَمل خارجًا على الحضير وكف عن السير به مثل العبايط، ولا تضيع وقت المولد عليك.

ووضع يده في محفظة نقوده المستطيلة وأعطاني جنيهًا كاملًا، وقال:

ـ اذهب والعب ألعاب المولد التي تحبها واصرف كما شئت، ثم سآخذك فيما بعد لشراء لعبة من شادِر المولد... واكبر.

لم أنبس بكلمة، أخذت النقود وذهبت خارج الغرفة أربط حَملي، ونزلت على السلم الحجري شبه الآيل للسقوط، فسمعت الحَمل يقول:

ـ مااااء.

فهمت على الفور أنه سمع أبي، ولكنه يريد أن يجيء معي ليرى ألعاب المولد التي حدثته عنها في منزلنا طوال أشهر، قبل أن نأتي إلى «بيت المساكين»، وأشفقت على مصيره الذي ينتظره خلال أيام، فتسحبت أصعد على السلَّم وحللت أواصره، وحملته على كتفيَّ على طريقة الراعي الصالح، ممسكًا بأقدامه المدلاة كما حمله جوارجيوس المسكين عندما أعاده إليَّ بعد ضياع، وفررت خارج «بيت المساكين» قبل أن يراني أبي.

أوشية الهروب إلى أرض مصر

انحدرتُ إلى يسار شارع «بيت المساكين»، وهو شارع طيني ضيق متعرج، على جانبيه براز الأطفال، وسحابة ذباب جشعة تغطي كل كومة براز جوعًا، ويضيق الشارع أكثر بأيادٍ صغيرة كثيرة ممدودة من أجل حسنة. الأطفال المتسولون نصف عراة، أفضلهم حالًا كان حافيًا، وعلى وجوههم دفعة ذباب تكمل وجبتها من عماص أعينهم الحزينة، هم وبيوت شارعهم مساكين الحال حتى وإن لم يكونوا من عائلة المساكين بالدم. يلحُّون في طلب صدقة مدعومة بأدعية مثل: «لأجل خاطر العذراء»، و«العذراء تحقق لك منالك»... أسرعت في الشارع لأتجنب إحراج الأطفال العراة الحفاة المتسولين، لا يوجد معي فائض مال إلا لألعاب المولد. وكان المداح ذو الربابة السوداء والجلباب البني والعمة البيضاء المزهرة المائلة إلى الزُّرقة، يسير في شارع المساكين وهو يغني:

أمدح في اللي جالسة في مزود حقير

ولا فرش ولا سرير

وضعَت فيه القدير

وأنتِ شريفة يا أم المسيح

أنتِ شريفة

أنهيت شارع المساكين بسرعة لأنه شارع قصير، فوجدت نفسي عند الكنيسة القديمة، وأمامها فسحة كبيرة، وفي الجهة المقابلة سور حديدي. أعرف المشهد جيدًا خلف هذا السور، أراه من بعيد كل سنة منذ ولدت، ولكني لم أتأمله سوى هذا اليوم، مثلما يتأمل الإنسان تفصيلة جديدة عليه في جدار غرفته وكأنه يراها للمرة الأولى، مع أنه ولد في هذه الغرفة وكبر فيها. الدير على ارتفاع جبل شاهق، وهذا السور يمكنك أن ترى الغيطان والنيل من خلال فتحاته الحديدية الضيقة. في السنوات الفائتة كنت أخاف الاقتراب منه لأني أخشى المرتفعات، وأن يثقل رأسي فأسقط كما تحذرني أمي على الدوام. ولكني تجرأت في هذا اليوم وقررت أن أنظر من خلال فتحات السور لأشاهد المنظر، وأُريه لحَملي الذي لم يشاهده من قبل، وأراه أنا بعين جديدة كبرت عامًا جديدًا في رؤية الأشياء. اقتربت من السور في حرص وخوف وحَملي على كتفيَّ على طريقة جوارجيوس المسكين. وبدأت أقرب رأسي في حرص شديد لأشاهد سفح الجبل، فإذا بالطريق، الذي تظنه عظيمًا لا ينتهي وأنت تسير عليه، يبدو من على الجبل مثل خيط أسود هزيل من تلك الخيوط التي كانت أمي تخيط بها فساتين النساء لتدر عليها دخلًا إضافيًّا يساعد في مصاريف الحياة لنا والعلاج لها. بدا الطريق كبوادر نبتة الشارب الذي انتظرته طويلًا ليزين وجهي وأصبح رجلًا مثل أبي وأخي، ثم جادت عليَّ الذكورة بخط شعر رمادي مصفر بين أنفي وشفتي العليا، يكاد لا يُرى، ولكنه يبدو لي شاربًا مُرضيًا إذا لصقت وجهي في المرآة. وبين الطريق والنهر الكريم، السخي في عطائه، تربض الأرض الزراعية المفعمة بكل منظر حسن، والتي ما من شيء إلا وينمو فيها؛ منظر يضاهي بجماله مناظر الأحلام، فطرت هائمًا فوقه، محلقًا في الأرجاء كما على بساط الريح السحري، فنسيت أين

كنت أو أين تركت قدميَّ قبل أن أسرح، وفجأة سمعت صوتًا يقول:

ـ أرى أنك تعلمت أن تحمل الحَمل على كتفيك بطريقة الراعي الصالح، ولكن ليس هذا كل شيء.

أرعبني الصوت في لحظة متوجسة بطبعها، رشَمتُ الصليب على صدري لأطمئن، ثم نظرت خلفي فوجدت جوارجيوس المسكين مبتسمًا ابتسامة الرضا الحزينة التي لا تفارق وجهه الدخاني الفقير. فقلت، وأنا أحاول تجاوز الخوف الذي شعرت به كي أبدو أمامه كراعٍ صالح شجاع:

ـ لماذا تعيشون على الجبل وتتركون كل هذا الخَضار حول النهر؟

استدار المسكين ونظر خلفه إلى الكنيسة الأثرية العتيقة، وبموهبته التوراتية في الحكي قال:

ـ كي نعيش بجوار النور. قبل أن يشرق نور المسيحية على مصر، كان هنا، مكان هذه الكنيسة، معبد للأجداد المصريين القدماء، وهُدم. وقبل وصول العائلة المقدسة إلى جبل الدير، كانت تعيش على حطام معبد المصريين ساحرة عجوز شريرة وقاتلة، لم يُرَ في كل أرض مصر مثل قبحها، وكانت تفرض على الأجداد في جبل الدير حصة من قوتهم حتى تقيهم شر سحرها الأسود. ولم تقتصر سطوة سلطانها الشرير هذا على ناس جبل الدير فحسب، بل امتدت على النهر العظيم المقدس أيضًا، فكانت

تفرض على سفن التجارة والمراكب الشراعية التي تمر في النيل من أمام الجبل، متجهة إلى الوجه البحري أو القبلي، أن تدفع لها إتاوات حتى لا تُغرقها في النيل بالسحر والشر.

ثم نظر المسكين إلى أسفل الجبل حيث الغيطان والنهر وبينهما الطريق. وأكمل قائلًا:

ـ انظر إلى هذه الجزيرة الصغيرة أيها الراعي الصالح الصغير.

مددت رأسي باتجاه سفح الجبل لرؤية المشهد مرة أخرى بعد إشارة المسكين، وقلت له في تشوق وخوف:

ـ نعم أراها.

فأخرج ورقة شجر من الجيب الأيسر لجلبابه، صدقوني بلا داعٍ، ثم أعادها إلى جيبه مرة أخرى، وربت على الجيب ليُعدل من كرمشة القماش البالي، وبدا في الحقيقة مثل الذي يطمئن على الورقة وقلبه أسفلها، وأكمل لي الحكاية. عندما استقبل جده المسكين الكبير العائلة المقدسة، أجلسهم هنا في هذه الجزيرة، وقدم لهم المسكين الكبير الجبن القريش، والبيض المسلوق، والخبز الشمسي، ليأكلوا ويستريحوا من مشاق السفر الطويل الذي قطعوه من وجه مصر البحري. وقبل أن يصعدوا إلى هنا فوق الجبل، علمت الساحرة الشريرة بقدومهم من الشيطان، عدو البشر والخير، والذي كان يديرها ويحركها كما يدير كل قوى الشر في العالم ويحركها. وأمرها عدو الخير بالتخلص منهم بطريقة مروعة، حتى يموت الطفل الذي أرسله الله ليخلص

العالم. فأسقطت الساحرة عليهم من الجبل، بسحرها الشرير، صخرة ضخمة جدًّا، وهنا نظر الطفل يسوع ملك الملوك إلى الصخرة، وأشار إليها بيده الصغيرة الرقيقة، فتجمدت الصخرة في منتصف طريقها والتصقت بجسم الجبل، وطُبع كف الطفل يسوع على الصخرة الضخمة بدون أن يلمسها، حتى وهي تبعد عن يده المقدسة مسافة نصف ارتفاع جبل شاهق كهذا الجبل.

قلت بتشوق وحماس:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

قال كمَن تمكن من إثارة اهتمامي أخيرًا:

ـ عندما رأت الساحرة الشريرة ما حدث، صرخت صرخة أوصلت نحيبها إلى الهاوية، فنظر إليها الطفل يسوع في قوة وسلام، وبمجرد نظرة يا بني، أُحرقت هي وكتب السحر والسلاسل الحديدية التي كانت تحملها، وسقطت من على الجبل وغارت وتحولت إلى رماد، بعدما كانت كل الأرض قد امتلأت ظلمًا منها.

وهنا قلت للمسكين، في لهفة تشبه لهفتي في تحذير بطل الفيلم مما خططه له الأشرار أثناء المشاهد التي لم يكن حاضرًا فيها:

ـ وماذا بعد يا عم جوارجيوس؟ أخبرني.

فقال بنبرة فقير إمعة ذي أصول ملكية:

ـ حدث بعد هذه الأمور أن صعدت العائلة المقدسة برفقة المسكين الكبير إلى المغارة الصغيرة للساحرة الشريرة فى حضن الجبل، واختبأ الصبي وأمه وخطيب أمه النجار الطيب هناك من جنود الرومان لمدة ثلاثة أيام بلياليها، حلت فيها البركات والنعم والشرف على هذا الجبل فتقدس، ثم انطلقوا بعدها إلى الجنوب على حمار النجار.

رشَمتُ بيدي الصليب في مهابة، ونظرت إلى أسفل نحو الجزيرة، وقلت:

ـ وأين الصخرة الآن؟

قال المسكين في مرارة:

ـ سرقها الإنجليز اللصوص أولاد الكلب، وأخذوها معهم إلى بلدهم ووضعوها في متحف هناك.

قلت، وفي دماغي سؤال عويص:

ـ ولكن مَن بنى الكنيسة العتيقة هذه حول مغارة الساحرة التي سكنتها العائلة المقدسة؟

قال المسكين بروح ساحر ما زال يملك في جعبته القديمة المهترئة آلاف الأسرار الثمينة:

ـ حدث بعد هذه الأمور بأكثر من ثلاثمائة عام أن جاءت إلى جبل الدير ملكة من ملوك الاحتلال الروماني لمصر، كانت والدة

لإمبراطور قوي ذي شأن عظيم في العالم القديم، من أوائل الملوك الرومانيين الذين اعتنقوا المسيحية في الدنيا، بعد سنوات هائلة مخيفة ـ لا أعادها الله ـ من قتل المسيحيين لأنهم مسيحيون ولا يعبدون الأوثان مثلهم. وعلمت الملكة الرومانية من جد آخر للمسكين اسمه «مينا المسكين» أن العائلة المقدسة قد زارت هذه المنطقة واختبأت فى هذه المغارة من الجبل، فأمرت الملكة بنحت الصخور المحيطة بالمغارة وتفريغها لتتحول إلى هذه الكنيسة الأثرية.

نظرت نحو الكنيسة العتيقة أتأملها كوجه الجدود، وكدليل على مجد تاريخ عظيم. شعرت نحوها بما شعرت به تمامًا عندما أشار لي أبي إلى بيت قديم في مدينتنا على الكورنيش وقال لي إن فيلم «زوجة رجل مهم» تم تصويره هنا. سِرت نحو الكنيسة وحَملي على كتفيَّ على طريقة الراعي الصالح، خطوتين معدودتين وعيناي على وشك أن تبتلعاها لو قدرتا ـ يا سلام لو قُدر لهما ذلك ـ وقلت وما زال وجهي نحو الكنيسة:

ـ ألم يظهر أي أثر للساحرة الشريرة منذ ذلك اليوم يا عم جوارجيوس؟

تأخرت الإجابة عن المدة المعتادة التي يستغرقها إنسان للرد على آخر، ونظرت خلفي نحو المسكين فوجدته اختفى!

أوشية الحب

دائمًا يترك كلام جوارجيوس المسكين في عقلي حيرة، أرى حكاياته في ذهني على شكل مشاهد تاريخية من الأفلام التي كان يشاهدها أخي المغرور بطرس؛ كان أخي يتعالى على أفلام إسماعيل ياسين وفؤاد المهندس، ويقول إن السينما المصرية ليست بسينما، هو مثلًا كان يذوب عشقًا في السينما الإيطالية. كل الناس يكتفون بمشاهدة السينما؛ أما ذلك المتفذلك الوسيم أخي، فكان يقرأ كتبًا وجرائد ومجلات عنها. ذات مرة شاهدت معه فيلمًا أجنبيًّا وقف في أحد مشاهده البطل ونصف وجهه مظلم ونصفه الآخر منير. رأيته مشهدًا عاديًّا مملًّا ملل الدنيا، لا به ضحكة نتيجة نكتة من البطل، ولا قُبلة في فم البطلة، ولا «أكشن» مثير وضرب نار؛ مشهد ممل للغاية. وإذا بأخي يقول لي:

ـ انظر كيف وظف المخرج الضوء والظلام كي يرمز إلى الجزء المعتم من أعماق حياة البطل، وانظر إلى زاوية الكاميرا، إنها تلتقط البطل من أعلى لكي تحقره وتظهره نكرة في وسط صخب المدينة الخرسانية السريعة الموحشة، لكي ترينا اللقطة أنه قشة ولا شيء في ضجة المدينة (التي لا أعلم «مالها»)، وانظر إلى نظرة البطل، إنها نظرة عين مستكينة ولكنها قوية، عين مستضعفة ولكنها فاعلة. (أو أبصر ماذا!).

وأنا بالطبع لم آخذ بالي من هذا ولا ذاك، ولا عمري كنت سآخذ بالي أصلًا لولا توضيحه الممل، لم يكن يعنيني أنا ضوء الكاميرا

وزاويتها، ولا عين البطل، أنا في الأساس في لقطة عين البطل «المستكينة ولكنها قوية» هذه، كنت قد قلت لنفسي ـ متعاطفًا مع البطل ـ قبل تحليل أخي المتحذلق: «يا عيني الممثل لديه نسبة حوَل بسيطة في عينه!».

* * *

كنت أسير حاملًا حَملي على كتفيَّ على طريقة الراعي الصالح، بين زحام الناس في جوار كنيسة العذراء العتيقة التي بنتها الملكة الرومانية الأم حول المغارة التي سكنتها العذراء وأسرتها بعد أن تخلص ابنها الطفل، مخلص العالم، من الساحرة الشريرة، التي لم يُرَ في كل أرض مصر مثل قبحها. وكان المدَّاح على الربابة يجلس على الأرض على يسار الكنيسة، ويعطي ظهره لحائطها العتيق، وحوله حلقة من المريدين كحبات العنب حول ساق العنقود بزيهم الفلاحي، يغني لهم ويقول:

إزاي أنا أحمل وأنا اللي بكر وعروسة

وعرضي زي الحبوب اللي ما تدخلوش سوسة

ياما نتشوا في عرضها وهي بكر وعروسة

ورأيت بطرس أخي الذي يحتقر المولد ويتعالى على الناس فيه، ومعه حبيبته دميانة؛ من الواضح أنها هي وأمها وإخوتها قد وصلوا إلى جبل الدير لتوِّهم، هم غالبًا يأتون بعد بدء المولد بيوم، على الرغم من أن أباهم هو أبونا ساويرس راعي الكنيسة الجديدة

في قرية جبل الدير، والذي يستقر فيها طوال السنة لا في أيام المولد فقط مثلنا نحن الزوار، ولكن أسرته تعيش في قريتهم الأصلية التي على طريق قرية الدير نفسها شرق النيل.

كان أخي يسير بجوار دميانة ويتحدث إليها، وكنت أعلم علم اليقين أن هذا السافل المغرور المستنير يريد أن يمسك يدها ويُقبلها في فمها مثلما يحصل في الأفلام الأجنبية التي يحبها، ولكنه يخشى الناس في المولد حوله، ويخشى قواعد أبي الصارمة الصعيدية للأصول والآداب، كما يخشى أهل دميانة، وأباها قس الكنيسة.

أحب أخي دميانة منذ المرة الأولى التي رآها فيها هنا في جبل الدير قبل مولدين فاتا. هي فتاة سمراء ذات ابتسامة مذهلة؛ إن ضحكت ـ وهي كثيرًا ما تضحك ـ ظهرت أسنانها البيضاء المتناسقة وكأنها شمامسة بتونياتهم البيضاء الملائكية المطمئنة المفرحة، يقفون متحاذين بصرامة وقداسة ووداعة في قداس يقام في هيكل الرب، وشعرها الأسود الفاحم ذو مهابة، يشبه ستائر حجاب الهيكل السوداء في أسبوع الآلام الحزين، يحيط بوجهها ويحدده كإطار أيقونة مقدسة، فيجعل ملامحها شديدة الجاذبية والقدسية والهيام. إنها خفيفة الظل، تحدثت معها العام الماضي، ولم أتمكن من إغلاق فمي من كثرة الضحك على تعليقاتها الذكية الساخرة والساحرة. لم أفهم لماذا أحبت دميانة الجميلة البسيطة أخي المثقف الممل بطرس، الذي يتابع الظل والضوء على وجه الممثلين، وحركات الكاميرات في الأفلام الإيطالية، ويطعِّم كلامه بأسماء كُتَّاب وفلاسفة خواجات متحذلقين مثله.

اتجه بطرس ودميانة إلى مكتبة الدير التي تقع أمام المدافن بجوار الكنيسة، ودخلت وراءهما. هذه المكتبة لا تُعير الكتب مثل مكتبات المدرسة وقصور الثقافة وبيوتها، وليس بها كتب تشبه باقي المكتبات، بل هي مكتبة لبيع الكتب المسيحية الحديثة إلى جانب تماثيل القديسين وصورهم، وأعواد البخور، وأكياس صغيرة بها بعض الحنوط برائحتها الزكية، جُلبت من حنطة رفات القديسين الأطهار، وزجاجات الأباركة ـ أي النبيذ ـ وميداليات وسلاسل عليها أيقونات المسيح وقديسيه. وكتب هذه المكتبة كلها للبيع، كتب دينية من تأليف آباء كهنة ورهبان، وكان أخي بطرس يقول في غرور ـ كطبعه دائمًا لا جديد يعني ـ عن هذه الكتب إن أغلبها ركيك وساذج، ولا يربطها بعالم الفكر والإبداع تعريفة، ومَن كتبوها لولا أنهم رجال دين ما كان طبع لهم أحد ورقة واحدة من هذا العته المغموس بالكلام المقدس الذي يكتبونه، وكان بطرس يضيف، ويُقسم بالله، إن خسارة فيها الشجرة التي قُطعت لتتحول إلى ورق يطبع عليه هذا الكلام الركيك السطحي المكرر الممل، الذي يذكر أمورًا باعتبارها أفكارًا جديدة ولكنها معروفة لكل الناس، والأطفال أنفسهم يحفظونها، أما الجديد في هذه الكتب فهو أنها تُكتب لتبالغ فيما نعرفه. وكان بطرس يضيف متأففًا من هذه الكتب الدينية، أن مؤلفها ينفق عشرات الصفحات أمام ملاحظة بسيطة يمكن أن يشير إليها في رُبع جملة «ويخلِّصنا»، ولكن إسهابه وأسلوبه الجاف المفتعل واصطناع روح غير روحه تجعلها كتابة تجلب النعاس وتسقط الكتاب من يدك فتنام. ثم يقسم بطرس ثانيةً بأن النوم في هذه الحالة أفيد لعقل الإنسان من قراءة هذه الكتب. شبه مهرطق أخي هذا، لا يحترم رجال الله ولا يقبِّل يدهم مثلنا، ولا عنده شيء محصن من التفكير فيه، لكن ـ والصراحة حلوة ـ

كلامه لا يتحمل العقل مقاومته، ولا سقف يكبح جماحه، وأنا معجب به للغاية.

ألقى أخي التحية بكبرياء وزهو على الراهبة التي تدير المكتبة وتجلس بجوار الباب، ثم دخل مع دميانة إلى عمق المكتبة المتسعة، وأمسك بيدها كما كنت على يقين منذ قليل أنه سيفعل. دخلت وراءهما، بدون أن يرياني بالطبع، وتغلغلا في الممرات التي حددتها الأرفف، وأنا في نيتي أن أتلصص عليهما لأرى ماذا سيفعلان.

وكانت المكتبة فارغة من الناس، ليس بها أحد غيرنا، والراهبة العجوز الجالسة على كرسي عند الباب تغالب النعاس وملل قلة الزبائن. ظل أخي ودميانة يتوغلان إلى أبعد نقطة في قلب المكتبة، تحت تمثال ضخم للمسيح وهو مصلوب، وكان تمثالًا أكبر من قامة الشخص البالغ، كُتب عليه: «السعر مائة وخمسون جنيهًا»؛ مبلغ ضخم للغاية بالتأكيد، من الواضح أنه من البضاعة المخصصة للزوار الأجانب السائحين، لأنني لا أعرف أحدًا من أقاربنا زوار المولد يمكنه أن يدفع مائة وخمسين جنيهًا في تمثال، وإن كان للمسيح نفسه. راقبتهما من بين الأرفف؛ وقفا تحت قدمَي تمثال السيد المخلِّص ـ الذي عُذب ومات من أجل خطايانا ـ المعروض في انتظار مشترٍ قادر، وقرب أخي يد دميانة من وجهه وقبَّلها في حنان، وقلت لنفسي: «يا له من مهرطق، يرفض تقبيل يد قدس أبينا راعي الكنيسة وفي المقابل يُقبِّل يد ابنته! ويبرر رفضه بالقول إنه إذا كان لا يقبِّل يد أبيه الذي هو ولي نعمته، فكيف له أن يقبِّل يد رجل دين لا فضل له عليه؟». ثم قلت لنفسي، كأنني أكلم شخصًا آخر يشبهني ويوافقني على كل شيء:

«انظر المبادئ أين ذهبت! راقب الفلسفة كيف طارت! هو الآن يُقبل يد الفتيات وعائش في دور عمر الشريف!». قبَّل يدها ثلاث مرات ثم اقترب من ضحكتها المذهلة وطبع قُبلة على شفتها السفلى، ثم قُبلة على يسار فمها، ثم قُبلة خفيفة في وسط شفتيها، ثم عضها عضة رقيقة في شفتها السفلى وتراجع سنتيمترًا واحدًا، ثم قبَّلها في أذنها وعضها عضة بشفتيه تشبه تذوق شفاه الطفل للجيلاتي، وفي رقبتها طبع عدة قُبلات في دلال واشتياق، جعلها السافل ـ وهي البريئة ـ تذوب بين أحضانه، ثم عاد إلى فمها، فتحولت القُبلة إلى معركة بين الشفاه الأربع. توترتُ، وهو شيء يوتِّر بصراحة، وانتقل توتري إلى حَملي، فأصدر ثغاء خفيفًا، فلاحظا الصوت وتوقفا على الفور؛ نظرا حولهما فلم يجدا أحدًا، فخرجا من المكتبة مُسرعَين، بقلق. قلت لنفسي التي توافقني على كل شيء إنني كنت أعلم نية هذا السافل، فردت عليَّ نفسي: «يا بخته!».

أوشية الراقدين

خرجت من المكتبة بعد أخي ودميانة، ووجدت المقابر. ما أرهب هذا المكان حتى في النهار والشمس تضيئه! أعرف هذه المقابر وأخشاها، علَّ الشر يدركني فيها فأموت. وكانت المقابر عبارة عن غرف مربعة ذات أبواب حديدية مربعة سوداء، صدئة، وكل باب عليه شكل صليب من الحديد، ومغلق من الخارج بترباس يحكم غلقه على الأموات ويحميهم من الأحياء؛ قفل صدئ هراه الزمن بتعاقب فصوله وأيامه ولياليه. تختلف هذه المقابر عن التي نعرفها في بلداننا، فهي قريبة حد الالتصاق من البيوت في القرية، ومن المعالم الدينية هناك؛ على يسارها الكنيسة العتيقة التي بنتها الملكة الرومانية، وأمامها المكتبة وسكن الرهبان، وخلفها بيوت من سكان جبل الدير، وبين الكنيسة والمكتبة مساحة فارغة تطل على النهر، هي تلك المنطقة التي كنت أقف فيها مع جوارجيوس المسكين قبل أن يختفي. أظن أن الموتى في جبل الدير محظوظون بالمقارنة مع أي موتى في أي مكان في العالم، ولا سيما مَن هم في المدافن الأمامية، لأنهم مؤنسون دائمًا بالأحياء؛ حولهم ناس، وأقاربهم أمامهم طوال اليوم، وزوار من أماكن عديدة يعبثون حولهم ولا ينامون طوال أيام المولد السبعة، والزوار يجلسون على هذه المقابر الأمامية لقضاء ساعاتهم في رحاب الكنيسة القديمة. يجلس الناس على المقابر في سلام، متصالحين مع الموت، لاهثين نحو الحياة، يتمتعون بمتاعها حتى لو لأيام قليلة في قرية فقيرة على جبل في رحاب العذراء مريم.

دفعني الفضول ذلك اليوم إلى الدخول وسط هذه المقابر والتعمق فيها، وألا أكتفي بالمقابر التي تطل على الواجهة. في النهار تكون الحركة خفيفة، والخوف من الموت منسيًّا، أو على الأقل أخف منه في الليل، لأن الناس ـ وأنا منهم ـ يعتقدون أن الموت يجيء في الليل فقط فيخطف منا الأحباب. والأشباح وقابضو الأرواح أيضًا لا يجيئون إلا في الليل، حتى الشيطان الماكر ابن الأبالسة أظنه يكون نشيطًا في الوَز والوسوسة أكثر في سواد الليل.

دخلت، وداخل مقابر جبل الدير نادرًا ما تجد ممرات، فهي مقابر متلاصقة بشكل عشوائي للغاية، للتوغل داخلها عليك أن تتسلق المقبرة التي طولها حوالي المتر، وتظل تصعد من مقبرة إلى أخرى بشكل هندسي أشبه بصعود سلم غير متناغم. ظللت أتسلق وأتوغل حتى وجدت مربعًا فارغًا بين المقابر، تحيط به ثلاثة حوائط لمقابر أكبر من العادية، أما الضلع الرابع فهو لمقبرة من تلك المقابر المنتشرة ذات ارتفاع متر واحد. نظرت من فوق المقبرة الواطئة، ومعي حَملي، رأيت طُرقة مربعة، وصناديق موتى مكسرة، وأبواب المقابر مفتوحة. خفت في البداية، ولكن شيئًا داخلي قال لي لا بد أن أستكشف، لا بد أن أحمل معي قصة مشوقة أرويها لأصحابي عندما أعود من المولد، فلا شك أنهم سينبهرون بي إذا حكيت لهم أني دخلت المقابر بمفردي.

تركت حَملي على المقبرة الواطئة، ووصيته بألا يتحرك من مكانه حتى أعود، وتذكرت أنه سيموت خلال أيام لأن أبي سيقدمه ذبيحة للعذراء لتتشفع لنا وتشفي أمي من المرض. تجاهلت الفكرة المحزنة كي لا تؤثر على شجاعتي وتماسكي، وقفزت. اقتربت من أحد صناديق الموتى شبه المحطمة؛ وهو

صندوق مستطيل طوله طول الإنسان البالغ، وعرضه أقصى عرض يمكن أن يصل إليه جسد الإنسان، وارتفاعه حوالي نصف متر، وله باب من أعلى يحكم غلقه. ثُبت في وسط الباب صليب معدني طوله حوالي شبر، وقد عُلق عليه المسيح، يا حبيبي، عاريًا إلا من قطعة قماش تستر عورته، وعلى رأسه إكليل الشوك الدامي، وملامحه متعبة، وجسده مُثقل بخطيئة بحجم العالم. كان المسيح على هذا الصليب في حالة إعياء مميتة، شعرت أنه يتنفس آخر أنفاس الحياة، وبدا صدره المصنوع من المعدن الرصاصي كأنه يصعد ويهبط، فتشعر أن قلب الله يشبع من آخر جزيئات هواء في تجربته للحياة الإنسانية، ولكني في الحقيقة لا أظن أن الله يتنفس.

مددت يدي إلى باب الصندوق وفتحته، فملأ الجو ترابٌ كثيف خانق. أمسكت الباب بيدي اليسرى، وأشحت بالأخرى يمينًا ويسارًا لأبعد التراب عن وجهي. نظرت داخل الصندوق فوجدت عظام بشر، عددًا كبيرًا من العظام محشورًا في صندوق واحد، وأكثر من جمجمة، أمسكت جمجمة منها واجتاحتني الأسئلة: تُرى أكان رجلًا أم امرأة؟ ماذا كان لون جسده؟ وعينيه؟ هل كان له شعر أم كان أصلع؟ هل كان شعره أسود أم غزاه الشيب؟ هل مات بسبب مرض أم قُتل؟ أم مات ميتة الله على سريره بدون مرض وبهدلة، تلك الميتة التي تحبها أمي وتحسد موتاها عليها؟ وسمعت صوتًا من قلب الموت يقول:

ـ اذكر أن الموت لا يبطئ، فلا تحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم.

تسمرت بمسامير الرعدة والمفاجأة على خشبة صليب الموقف المُخيف، ووجدت جوارجيوس المسكين يقف على المقبرة الواطئة، يحمل حَملي على كتفيه كالراعي الصالح. رشمت الصليب على صدري لأُطمئن قلبي من هلعه، وقلت له بضيق:

ـ أرعبتني يا عم جوارجيوس، لماذا أنت هنا؟!

فأجاب بثقة، مبتسمًا:

ـ لأنك أنت هنا أيها الراعي الصالح.

قلت له في تذمر، وكأن الفرصة أتيحت لي أخيرًا لأنتقم من رعب المفاجآت التي يحدثها بظهوره واختفائه العبثيين على الدوام:

ـ أنا لا أفهم كثيرًا من كلامك، كيف عرفت أنني هنا؟ ولماذا تختفي وتظهر كما يحلو لك؟ هذه الأمور تُخيفني!

فقال، كالذي أعجبته فكرة أنني أخاف تجلياته فبدأ يسرف في سبكها:

ـ قلب الإنسان لا يختار طريقه، إنما الذي يُمدح في الصباح والمساء يهدي خطواتنا.

قلت في تذمر، وقد أيقنت أنني كنت محقًّا عندما نهرته منذ قليل:

ـ حتى هذا التوضيح لا أفهمه.

ثم نظرت حولي وتذكرت مكان الموت هذا، مملكة الموتى التي كنت فيها منذ لحظات وحدي، وفصلني عنها جوارجيوس المسكين بمفاجأته المخيفة وكلماته المبهمة، وقلت كالذي جاء دوره ولا بد أن يقول شيئًا بدون أن يفكر فيما سيقول:

ـ هل كل هذه الجماجم والعظام الكثيرة التي تملأ هذا الصندوق لإنسان واحد؟ هل وُجد قديمًا إنسان له أكثر من رأس مثلما نرى في الأفلام الأجنبية؟

فحدجني المسكين بنظرة تسخر من حماقتي السينمائية، وقال:

ـ بالطبع لا، هي عظام أكثر من خمسة موتى.

قلت متعجبًا:

ـ ولماذا تضعونهم في صندوق واحد، أليس من نصيب كل ميت صندوق مستقل؟

قال كما لو أن لوم أفعال البشر شيء يُريحه ويسعده:

ـ كل جثة منها كانت في صندوق وحدها، وكان ذلك قبل أكثر من مائة صيف ومائة شتاء، ولكن إياك والتفكير في أن الأجيال القديمة تبقى على مكانتها التي كانت عليها في حينها! لا يا بني، الآن، كما ترى، الأبناء يجمعون عظام الأجداد الراحلين منذ أجيال طويلة، في صندوق واحد ويضعونه في الخلاء خارج المقبرة، كي يوفروا مكانًا في المقبرة لدفن الحديثين من موتاهم.

تحيرت لحظة، وشعرت بأن لديَّ عِتابات متراكمة على القلب مثل المسكين، وبأن هذا هو الموقف الأنسب لأبين بعضها، فقلت:

ـ هذه قلوب قاسية، ألا يحترمون الموتى؟!

نظر المسكين في كف يده، وقال كالذي دوَّن تاريخ الموت كله بين خطوطها الأربعة المتعرجة كالأنهار:

ـ عند الناس، الميت حديثًا أبقى من الذي مات منذ أمد، على الرغم من أن الاثنين في حالة موت؛ هذا هو تاريخ قانون الحزن عند الإنسان.

وتلفت المسكين حوله، واستطرد بخبرة حكيم الغابات في القصص قائلًا:

ـ أيها الراعي الصالح ألا تعلم أن الذئاب كثيرة في المقابر؟ كيف تركت حَملك هكذا وحده؟

وصمت المسكين، وعلق عينيه برهة نحو غراب طائر في السماء، ثم استدرك وأضاف:

ـ هل تعرف الفرق بين الراعي الصالح والأجير؟

تابعت بعينيَّ أنا أيضًا رحيل الغراب الأسود الذي لفت نظر المسكين، كأنها عدوى، ثم أجبت في حيرة، وشوق غامر لمعرفة مفاهيم الكبار والفروق بينها:

ـ لا، لا أعلم.

فقال بعد أن تمكن كل التمكن من الأشياء التي تزيد حيرتي وتثير فضولي:

ـ سأخبرك لاحقًا، هيا اتبعني لنخرج من هنا.

ثم وقف المسكين منتصبًا، نظر متنهدًا إلى العظام في الصندوق، ثم انحنى تحية لها وقال وهو ما زال منحنيًا:

ـ يا مَن مر عليكم الأمس وجاء إليَّ، فأنا مثلكم، الغد سيكون بدوني، فلتكن أرواحكم في المقدمة مع مَن يُحصون السنين.

وأحكم المسكين غلق الصندوق وانتصب، وأعطاني حَملي، وظل يقفز فوق المقابر المتلاصقة كشاب صغير رياضي وهو يقول فيما يشبه التعديد القصير:

ياما اشتهى الميَّه سقوه المرار

وهو صانع البحر بإيده!

وأنا خلفه أتسلق المقابر، وأتبعه بخطوات بطيئة جعلته يتقدمني، وصوته يبعد كصوت غريق في البحر، ويبعد ويبعد حتى اختفى عديدُه عن أذنيَّ، وشبحه عن نظري مرة جديدة.

أوشية التحليق

دخلت السوق الكبير للمولد. في كل شوارع القرية مجرى صرف صحي ضيق طويل، عمقه لا يتعدى شبرًا، يجري في الوسط على طول الشارع ويصرف المياه المتسخة وقاذورات الإنسان من البيوت إلى فضاء الجبل. ليس لأهل جبل الدير مواسير مَجارٍ في باطن الأرض كما هي الحال عندنا، كل شيء في جبل الدير يُعبر عن الفقر والمرض، والقداسة أيضًا، وحين نسير في طرقات جبل الدير، نحن الذين نحفظها كأننا ولدنا فيها، ننظر أسفل أقدامنا بين الفينة والفينة حتى لا تتعثر أقدامنا في مجرى القاذورات، لأنه لو حدث وغُرست قدم في المجاري، وقتها يتمنى صاحبها أن تبتر، ليقينه الشديد بأنه لا يوجد أي شيء في الدنيا يمكنه أن يزيل هذه القذارة من الجسد أو يُطهِّر صاحبه منها.

وعلى يمين شوارع السوق ويسارها خيام للباعة. البعض يبيع الخروب والحمص والفول، فكانت رائحة الخروب تسيطر على المكان وتدفئه، ورائحة المجاري تخنقه وتكئبه، فيحتار أنفي أيتهما يتبع. وبعض الخيام تبيع لعب الأطفال البلاستيكية، وميداليات بها صور القديسين، وصلبانًا وإكسسوارات حريمي. وبعضها يبيع عباءات النساء كالتي ترتديها أمي دائمًا في البيت، وهي عباءة تكون غالبًا سادة، ولها ألوان مختلفة زاهية من تلك الألوان المقربة لذوق النساء؛ وردي وأحمر وأخضر وأزرق، كلها بنصف كُم، وبها تطريز على الصدر يزينها بأشكال مختلفة لمناظر طبيعية، أغلبها وردات وطيور. وبعض الخيام تبيع طُرحًا للنساء، منها السادة ومنها المزركشة، ومنها المطبوع عليها

أيقونات القديسين بالألوان. وبين الحين والآخر تجد خيامًا لبيع المرطبات، الكازوزة والجيلاتي، وتصدح من كل الخيام مواويل ترتَّل للعذراء. وقال المدَّاح أول ما قال عبر المسجل في ذلك الوقت:

قام قالهم الملك

زوروا المولود

وتعالوا أخبروني عنه

ياما نفسي أنضرُه بعيني

راحوا المجوس شافوا المسيح

وما رضيوش يقولولوا عنه

يا مريم يا حرة، يا مريم يا شريفة، يا مريم يا نضيفة

وكانت هناك خيام للتصوير الفوتوغرافي، وفيها تماثيل للقديسين بحجم الإنسان، يقف مَن يرغب في أن يُصوَّر بجوار التمثال ويلتقط له المصور صورة، ثم يعود بعد يوم ليتسلمها ويرى نفسه فيها بصحبة قديسه المفضل. ذات مرة قلت لأبي، ونحن نسير في المولد، إنني أرغب في أن أُصوَّر بجوار القديس أبونا عبد المسيح المناهري، لأنني أحبه وأحلم به يعطيني هدايا ووصايا وكنوزًا، فسخر مني أخي بطرس، ونصحني بألا أقلد الفلاحين في

ممارساتهم. ولكن أبي تجاهله وصورني مع تمثال القديس المناهري صورة علقتها في غرفتي.

أخرجني شارع السوق الكبير إلى أرض واسعة في المولد تنيرها الشمس بوضوح، مخصصة لألعاب المولد القديمة، ألعاب متنوعة تَركبها مقابل أن تدفع ثمنًا للمرة الواحدة. رأيت لعبة المدفع، ومجراها الحديدي الذي يشبه شريط القطار، لكنه أصغر منه وأقصر بآلاف المرات، وعليه جسم حديدي مثل القطار الصغير، فيه يد يدفع منها اللاعب هذا القطار الصغير إلى مجرى سكة حديدية تأخذ منحنى صاعدًا، مما يصعِّب عملية وصول القطار إلى نهاية الشريط، وفي واجهة القطار توجد «بومبة». واللاعب القوي هو الذي يضع حلقات حديدية ثقيلة حول عمود أعلى القطار، في منتصفه، ويجعله أثقل، ويدفعه بكامل قوته، فيسير القطار مسرعًا حتى يصطدم، في نهاية الممر، بـ«البومبة» التي تفرقع معلنة عن قوة اللاعب ومتانة عضلاته، وهي لعبة كنت أرغب في لعبها منذ سنوات، ولكنها للكبار فقط، بل للأقوياء منهم. ذات مرة أُطلق رهانٌ بين عدد من الرجال حول لعبة المدفع؛ مَن منهم يمكنه أن يضع كل الأثقال من الحلقات الحديدية، وأن يدفع، على الرغم من ذلك، القطار حتى نهاية الممر لتفرقع «البومبة». لم يستطع أحد منهم الوصول بالقطار إلى نهاية الممر بكل الأوزان من الحلقات الحديدية، بل كان القطار يقف في منتصف الطريق أو قبل ربعه الأخير، ويعود متقهقرًا حتى يتلقفه دافعه بيده ثانية، خائب الأمل، فيسخر منه الواقفون وينعتونه بتشبيهات نسائية تضيق منها صدور الرجال. وجاء دور أبي، فابتسم بثقة، وطلب من الرجل الذي يدير اللعبة أن يضع كل الأوزان من الحلقات الحديدية التي يمكن أن تتحملها اللعبة. وكان

فوق القطار كرسي ككرسي الدراجة، وأمامه مقبض، يُستخدم ليجلس طفل على القطار ويثقل وزنه أكثر، فتصعب المهمة على اللاعب أكثر. فحملني أبي بعضلاته المفتولة وجسده الشاهق، ووضعني على الكرسي، وطلب مني أن أتشبث بالمقبض جيدًا حتى لا أسقط، وأمسك أبي مقبض اللاعب الذي في ظهر القطار، وشمَّر عن ساعديه، وعض شفتيه، وقال:

ـ يا مار جرجس!

ودفع القطار بكل الأوزان من الحلقات الحديدية الثقيلة، وأنا معها فوق الكرسي أمثل دور وزن إضافي ثقيل على الرغم من خفة دمي، وجرى بي القطار كقطار مصر، بسرعة مذهلة، متجاوزًا المنحنى الصاعد الذي يشبه الكوبري العالي الذي بناه الإنجليز في مدينتنا، وحطمت قوة ساعد أبي هيبة الأوزان الثقيلة، وتلاشت خلفه كلمات المنافسين الخبيثة التي من شأنها أن تحط من قدرته، واصطدم القطار بنا في نهاية الممر مصدرًا صوت فرقعة المدفع نتيجة انفجار «البومبة»، وتقارعت الأوزان الحديدية نتيجة الصدمة حتى كادت أن تولد شررًا أحمر، فصُمت أذناي والله، وربما صعد مع كل أصوات الكركبة هذه صوت زردة قوية أطلقتها أمعائي تعبيرًا عن خوفها وحركتها المفاجئة. هلل الناس لأبي كبطل شجاع، كمار جرجس الذي وقف في وجه الوالي الروماني بشجاعة وأعلن إيمانه بالمسيح؛ مار جرجس الروماني الشجاع الذي قتل التنين في موقف آخر بالحربة. وتمنى الناس لأبي دوام الصحة والعافية في الخير، وفي اسم المسيح طبعًا لا في الافتراء بقوته على الناس، وهذا ما كان يفعله أبي أساسًا بدون حاجة إلى نصائحهم.

ثم توجهت إلى منطقة ألعاب القارب في السوق، وهي لعبة للكبار والصغار، قاربها ممسوك من الأعلى بأربعة عمدان حديدية، وفي كل لعبة قاربان متجاوران، يعملان بقوة الدفع أو التعويم في الهواء، والمهارة في لعبة القارب هي في أن تسابق القارب الذي يجاورك. دُرت بعينيَّ على ألعاب القارب الموجودة في السوق، واخترت من بينها أكبرها قياسًا، وأزهاها ألوانًا، كان لونها أحمر وأبيض وأزرق، وكان صاحب اللعبة، مثل كل ناس المولد، يستمع إلى المدَّاح نفسه ويعلي صوت مسجله. وكانت المدحة تقول:

جات واخدة ابنها وجات واخدة يوسف النجار

وجات نازلة على أرض مصر

وهي ماشية عاد تقول لابنها إيه

تقوله: «أمك شريفة يا ضنايا وتهموها مع النجار

وعشان خاطرك يا ضنايا أنا حملت عليك العار

يا ابني دا انت الغالي وشويت الضمير يا ابني

ده قبل ما تشوفك عينيا جاورت الكبود يا ابني

يا ضنا أمك، يا ضنايا

آااخ يا ابني»

ألقيت التحية على صاحب اللعبة، وسألته عن سعر التأرجح لمرة واحدة، فقال:

ـ خمسة عشر قرشًا.

وسألته عن موقف حَملي:

ـ لو ركب معي هل السعر سيزيد؟

فقال:

ـ لا، ولكن حاسب من أن يسقط منك فيموت.

فطمأنته قائلًا:

ـ لا تخشَ فأنا راعٍ صالح.

فلم يعبأ بكلامي أو يعجب به مثلما كنت أتوقع، بل غالبًا شعر أنني عبيط.

كان القاربان فارغَين، فاخترت القارب الأيمن، ووقفت في شموخ في وسطه، وأمسكت بالعمودين الحديديين الأماميين، اللذين يوصلان القارب، مع العمودين الخلفيين، بالعِرق الكبير الذي يثبت اللعبة من أعلى، وجعلت قدمي اليمنى في الأمام واليسرى في الخلف كي أتمكن من «التعويم» في الهواء بقوة دفع جسدي. وضعت حَملي بين ساقيَّ، وفك صاحب اللعبة مكابح القارب من عمود حديدي بجوار كرسيه على يسار اللعبة، ثم جاء نحوي من

اليمين، ودفع القارب بكلتا يديه كي يساعدني على بدء التعويم، ثم تركني بعدها أعتمد على نفسي. ظللت أجاهد كي أحلق إلى الأعالي: عندما يكون القارب في هواء الخلف أميل بجسدي وساقيَّ وصدري وأدفعه بكل ما أوتيت من قوة إلى الأمام، فأكون مثل سهم يخترق الهواء، فيسمو القارب أكثر مع كل جهد أبذله؛ ثم للتعويم للخلف يأخذ جسمي الشكل الهندسي نفسه الذي اتخذه للتحليق إلى الأمام، لكنني أحوِّل كل قوتي وعضلاتي ومؤخرتي للتحليق إلى الخلف. نظرت في قاع القارب، وجدت حَملي سعيدًا و«يمأمئ» وتتراقص أذناه الطريتان في الهواء مع كل أرجحة، علَّه كان أول حَمل في الدنيا يتأرجح وكأنه إنسان لا ذبيحة. وتذكرت أن أبي سيقدمه بعد أيام ذبيحة للعذراء، لكي تشفي أمي من السرطان. نزلت دمعتي، وتمنيت لو أحل إحدى يديَّ من مهمة الإمساك بعمود القارب، وأضعها على حَملي أطمئنه وأحنو عليه، ولكني خفت من السقوط، وأغرقتني الهموم وسط البهجة، وحزمتني القيود في أثناء التحليق، وجرت دمعة غليظة متخمة بالماء المالح على وجهي السماوي البريء، سقطت مع سرعة حركة القارب في هواء الدنيا، فحلَّقت الدمعة وحدها في الخلاء بعيدًا عني، ثم عانقَت تراب الأرض أسفل القارب المتأرجح السابح في السماء، وسمعت صوتًا طائرًا في الهواء يقول:

ـ للبكاء وقت وللضحك وقت أيها الراعي الصالح.

نظرت بجواري باتجاه مصدر الصوت في انقباضة قلب طويلة معذبة، فوجدت جوارجيوس المسكين على القارب الآخر، يحلق تحليقًا لم أرَ مثيلًا له من قبل، يكاد يلمس بطرف قاربه زوايا السحاب في السماء. لقد تفوق حتى على عمي الصغير، أفضل

مَن حلّق بلعبة القارب في المولد من عائلتنا، وقلت له في جمود غطاه خوف عجيب:

ـ كيف ركبت القارب بدون أن أشعر بك؟

فقال:

ـ ما الذي يبكيك وسط اللعب؟

فأجبته وأنا أحاول أن أجاريه في التحليق لألحق به:

ـ تذكرت أن أبي سيقدم حَملي المسكين هذا ذبيحة للعذراء كي تشفي أمي من السرطان.

فقال في رفق وأناة:

ـ الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج، أيها الراعي الصالح.

فأجبته بغير اقتناع:

ـ ابتهاجي يتعارض مع ابتهاج أبي؛ أنا حالم صاحب أمل، بينما هو قادر صاحب قرار.

ونظرت في كل الاتجاهات من حولي، محاولًا تجاوز شعوري الحزين، وعدت أقول له صارخًا كي يسمعني وسط الهواء:

ـ كيف تحلق بالقارب إلى كل هذا الارتفاع؟ راقب الناس على الأرض، ينظرون إلى السماء ليروك.

فأجابني بثقة واعتياد بدون حتى أن ينظر إلى الأرض ليرى هؤلاء المعجبين بتحليقه:

ـ خير لك أنت أيضًا أن تنطلق، ارتفع مثلي كي نزيد عددهم.

فأجبته وأنا أقرض على شفتيَّ كي أجمع كل عزمي وألحق به، وعلى وجهي حبات العرق اللؤلؤية:

ـ ولكني تعبت.

فأجاب في حكمة عميقة:

ـ جدد قوة أجنحتك فترتفع كالنسور أيها الراعي الصالح، تركض ولا تتعب، تمشي ولا تعيى فتغلب الحياة.

شعرت وكأنني أول مرة أستطعم كلمة «الحياة»، وأقف أمام ماذا تعنيه، وقلت في تعجب:

ـ الحياة... طيب قبل أن أغلبها كيف أعيشها وأنا الذي في بدايتها؟

فقال كمَن عانى مرارة البحث عن مقاصدي سنوات وسنوات:

ـ ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة.

زادني كلامه تشويقًا وإصرارًا وعزمًا لأن أعيش الحياة على الرغم من ضيق بابها وكرب طريقها، فقلت:

ـ وكيف أجد الباب الضيق والطريق الكرب كي أصل إلى الحياة؟

أجاب في مرارة:

ـ للأسف يا صموئيل، قليلون الذين يجدونها.

ازدادت حيرتي وفاض ضيقي، وقلت في شبه تذمر بينما كنا نحلق معًا:

ـ أنا لا أفهم شيئًا، مَن علَّمك هذا الكلام؟

أجاب في ثقة، مع ابتسامة خفيفة:

ـ الذي هداني إلى طريق أمين.

قلت في محاولة مني لمقارنة الناس من حولي:

ـ كلامك ككلام أخي؛ كلامه يعجز العقل عن محاجاته، وكلامك يُهزَم القلبُ أمام مناجاته. متى يمكنني أن أصير مثلكما؟

قال كالذي بدأت خطته تنجح:

ـ أيعسر على الرب أمر؟ إن الله مع الصابرين.

أوشية الألم

في المساء أخذني أبي وحدي لنجوب سوق المولد ونستمتع، ونتسوق ونلعب. لم أجرؤ طبعًا أن أقول له إني سآخذ الحَمل معي، فتركته. أمسك أبي يدي بيده الضخمة القوية الخشنة، وكانت يدي سابحة في قوة عملاقة وليس مجرد كف إنسان، وحدثني في الطريق عن أني كبرت ويجب عليَّ أن أدق صليبًا في يدي اليمنى، وأضاف أن سني الآن هي السن المناسبة لتحمل ألم دق الصليب الذي تولده عملية الحفر في الجلد، والألم الناتج عن الدق بعدها بيومين. خشيت قليلًا، ولكني كنت متحمسًا لتلك الشهادة الأبدية للمصلوب على يميني، ومتشوقًا لصليب يثبتني في الإيمان، ويحميني من المخاطر، ويميزني عن الذين ليس لهم ختم الله، لكي يعلم الله أني من الذين هم له، أمدح بجسدي مجده وأشهد لفدائه. وتذكرت أخي بطرس، كنت أحسده على الصليب في يده الذي يكبر معه كلما كبر، وأقول: «متى يا ربي يدق لي أبي صليبًا كصليبه؟!»، فكان أخي ينهرني ويستغباني وينصحني في ضيق بألا أدق صليبًا في يدي مثله، لأنه لو عاد به الزمن لرفض أن يُوشِّم نفسه بعلامة تميزه عن الآخرين. يومها قلت لبطرس، وكأنها فكرة جاءت إلى عقلي بسهولة جدًّا، إن اسمه وحده أكثر تمييزًا، ودليل لا شك فيه على دينه، فتعجب أخي من أني فكرت في فكرة كهذه، وكأنها طريقته هو وحده في الردود على الآخرين وإفحامهم، لكنه بالطبع لم يُغلب، فأخبرني بأنه ـ لو بيده ـ لاختار لنفسه اسمًا آخر.

كان كلام أخي يشغلني، ويعجبني، ولكن كلام أبي ككلام الله، لا يكذب فيه عليَّ ولا يزيف وعوده. وتذكرت أن الأهم الآن هو أن أفكر في الألم الذي سأشعر به في أثناء دق الصليب، فالكل يقول إنها تجربة مؤلمة. ولاحظت وسط التفكير أن أبي صامت كأنه يفكر في شيء ويحسبه، ثم رأيت شخصًا يمر بجواره ويضبط سرعة مشيته خلف أبي بخطوة بالتمام والكمال، لا تنقص خطوة أو تزيد، ويحاول أن يضع يده في جيب أبي. كدت أصرخ لأنبه أبي بما يحدث وراء ظهره، لكنه ضغط على يدي الصغيرة الممسكة بيده اليسرى، وحين نظرت إلى وجهه كي أفهم معنى الضغطة، أجابني بغمزة مخضرمة ذات معنى، فسكت. أدخل اللص يده كلها في جيب جلباب أبي الأنيق يبحث عن المحفظة، فالتقط أبي فجأة بيمناه ساعد اللص بقوة حتى إن اللقطة أصدرت صوتًا، فتخشب اللص وفتح فمه من الذعر، ولكنه حاول التماسك. فقال له أبي:

ـ أشعر بما تحاول فعله منذ ربع ساعة، وقلت لنفسي أتركك حتى تتورط للنهاية كي لا يلومني أحد على ما سأفعله في وجه أمك. ألم يخبرك أحد مَن أنا؟

فلجأ اللص إلى طريقة «خذوهم بالصوت كي يتنازلوا عما لهم»، ورفع صوته باستهزاء شرير كي «يركب الحوار» أولًا، فيخاف أبي ويتركه:

ـ لا يا أخانا والله لم يخبرني أحد عنك ولم نشاهدك في الأفلام ولا مرة.

فقال أبي مبتسمًا له كما قد يبتسم أمام سذاجة طفل شقي:

ـ إذن هأنذا.

ولكمه أبي لكمة بسرعة البرق، أصدرت صوتًا يشبه الرعد، وأطاحت به من مكانه وأرسلته في الهواء بسهولة هطول الأمطار، وطار صاحبنا وسقط أرضًا على بُعد متر ونصف في مجرى القاذورات، التي زُرع وجهه فيها. عندها اقترب اثنان من أعوان اللص لمعاقبة أبي على جرأته في حق زميلهما وكسره لأنفه، فكانت من نصيب الأول ـ قبل أن ينطق بكلمة ـ ركلة في الصدر من قدم أبي العملاقة، فوقع أرضًا يشخِر من صعوبة التنفس. أما الثاني فصفعه أبي صفعة مزدوجة بيديه الاثنتين مفرودتَي الكفين، تشبه قلمين على أذنيه، فزاغت عيناه في الأجواء واستدار رأسه في الأفق، فقرَّب أبي وجهه من وجه اللص وقال له:

ـ في أذنيك صفارة عالية الآن، أليس كذلك؟

فأجاب اللص إجابة تائهة لا تعرفها إن كانت أنين ألم أم ردًّا عن السؤال وقال:

ـ آه.

فعاجله أبي بضربة رأس أسقطته على الأرض كالذي نام يومًا كاملًا بعد رحلة متعبة، وكان المتفرجون، الذين تُنبتهم الأرض في أي شجار ولا تعلم من أين يأتون، قد اجتمعوا في حلقتهم

المستديرة المعتادة حول الخصوم، ثم صاحوا وهللوا لأبي بعد أن شاهدوا شيئًا «ولا في الأفلام». هندمَ أبي جلبابه وعدَّل عمته وتمم على محفظته في جيب الصديري، وأمسك يدي بيده اليسرى كما كنا، وسِرنا نستكمل مشوارنا. وسمعت، ونحن نسير، بائعًا عجوزًا خلف فرشة عليها ثلاثة أهرام ـ من الخروب والحمص والفول السوداني ـ وقد شاهد المعركة من أولها، يقول لابنه الجالس بجواره، بصوت خفيض كي لا يسمعه أبي:

ـ على الرغم من الاستكانة التي يشتهر بها الأقباط، ولكن يكفيك الله شر القبطي حينما يفجُر.

بعد قليل وقفنا أمام رجل يُوشِّم الصلبان في سوق المولد، وكان متوسط القامة وأصلع، يرتدي جلبابًا رماديًّا مهترئًا وملطخًا بالأصباغ، ويجلس على حَجر أمام حائط مخوخ بفجوات الزمن والرطوبة والفقر. علق الوشَّام بمسامير على الحائط إطارات لصور تعرض أشكالًا من الوشوم التي دقها طوال تاريخه؛ صلبان ذات أحجام ونهايات أضلع مختلفة، وصور أيقونات لقديسين نحبهم. وكان بجواره مسجل يذيع صوت مدَّاح يقول:

وأقول كلام عشان الناس تفكرني

وكل ما أنسى يا صاحبي إنت تفكرني

وقاله واحد من التلاميذ تفكرني؟

من معجزات الحياة لا بد الخلق تفكرني

قبل صياح الديك تلت مرات تنكرني

ألقى أبي التحية على الوشَّام، وقال وهو يضع يده على رأسي:

ـ يلزمنا أن ندق صليبًا للراجل الطيب هذا.

فقال الوشَّام:

ـ عيونًا، باسم الصليب، مبروك مقدمًا النعمة.

فابتسمت له في سعادة وتوجس. مسك الوشَّام يدي، وأوصى أبي بأن يقيدني بجسده الضخم كي لا أتحرك وأوجع نفسي أكثر. كانت تصدر من جسد الوشَّام رائحة شبه قذرة، فلم أطِق القرب منه، وأبعدت وجهي عنه لأريح جهازي التنفسي قدر الإمكان، ونظرت عن يميني فوجدت جوارجيوس المسكين قادمًا نحونا، ويقول مهللًا:

ـ أرى أن اليوم جسدًا جديدًا سيشهد للمسيح.

فاستقبله أبي بابتسامة عريضة جعلت من شاربَيه جناحَي صقر مفرودين، وقال مُرحبًا به:

ـ يا أهلًا بالمسكين حبيب الله.

ونظرت عن يساري فوجدت أخي بطرس قادمًا نحونا هو الآخر، ويقول من بعيد في عتاب شديد:

ـ ما فيك فيك، ألم أنصحك من قبل بأن تتجنب هذه العادة السيئة؟

احتج جوارجيوس المسكين كمَن لسعته كهرباء من سلك عارٍ:

ـ عادة سيئة؟!

فقال أخي في تحدٍّ وحزم بعد أن وصل إلينا:

ـ بلا ذرة شك عادة سيئة تلوث الدماء، قادمة من عصور ظالمة غابرة الله لا يعيدها، ويضيق بها الزمن الجديد.

تحدث المسكين فخرجت من فمه رائحة رجل صائم، وقال:

ـ إنه قدرنا يا بني، أن نوشم أنفسنا وتسيل دماؤنا كي نُهدى وشمًا لا تمحوه الأيام، فداءً لمَن أباح جسده ليخلصنا، وعلينا أن نهب أجسادنا لنعترف به أمام الدنيا، ولله حكمة تصعب على العقول وتعز.

تراجع بطرس خطوة ليتجنب رائحة فم المسكين الصائم، ولكنه اجتهد ليفعلها بأداء تمثيلي مبتذل كي لا يُحرج المسكين، وقال:

ـ يا مسكين لا تُعمق القشور، ولا تُضخم تلك المحاولة البائسة لإحداث علامة باقية بعد الزمن، الإيمان في القلب، لا على جلود الأيادي والأكتاف في ظن عبثي منا بأن الوشوم تستعيد هويتنا وتثبتها.

فقال جوارجيوس المسكين في دوخة حلوة تأتيك بعد أن تدور في تنورة، أو تدور هي من أجلك، بسرعة تزغلل العيون:

ـ ولِمَ لا تقول إنها لحظة اختراق نادرة، نُسقط فيها المسافات والحدود الفاصلة بين أعماقنا والدنيا؟ راقب خرق الجلد في يد أخيك الآن، تمعَّن في تدفق الدم، أخوك الآن يتذوق موجعة الفتح والإغلاق، راقب هذه اللحظة العابرة بين مرارة الألم الحالي وتكوين قشرة الشفاء غدًا.

قال أخي، قاصدًا أن يعلي من نبرة صوته وحدتها:

ـ والمسيح يا شيخ، لا تُفلسف العبث والخرافات، ولا تضخم الجهل وتعطيه أكثر من حجمه في زمن جادت فيه الحياة بأوضاع جديدة! إن ما يبدو واضحًا وضوح هذا الجبل الذي يحملنا هو أن الوشم ليس إلا استجابة لطوفان الآخرين، مهما تظاهر الموشوم منا بإرادته الذاتية الحرة.

احتج المسكين وأشار بيده قرب وجه أخي، وكأنه يتمنى أن يغلق فم مُعارضه:

ـ وإن لم نستجب يا بني فمَن غيرنا يروي الحكاية؟ نحن ننذر أجسادنا ليطبع على سطحها ما حدث للناس وأصل الناس.

حدجه أخي بنظرة شزراء وقال في تأفف:

ـ كلام مزدوج المعنى، حمَّال أوجه. لا تقل «الحكاية» و«التاريخ»، قل «السلطة»، سلطة الحاكم والأغلبية المتسلطة.

تمتم المسكين ساخطًا:

ـ وليكن، اعتبرها تذكيرًا للذات في بلد يتعمد نسياننا، وشمًا يربطنا بماضينا، يذكرنا بكفاحنا ومسيرتنا نحو الشرف والكرامة، ويعلن عن صلابة إيماننا بدين هذا المصلوب، وأزليته، في وجه الرومان والعرب.

قال أخي، وفي زوايا من دماغه تمرد بركان يغلي، ولكنه مهما غلا فلن يطال الفوهة أبدًا:

ـ يا مسكين نحن الذين نعيش ونموت على الهامش في موضع تجاهل وتعالٍ وتحقير، لن تسمح لنا الأجواء بأن نترك أثرًا في أي اتجاه، نحن فالحون فقط في أن نجعل من أجسادنا لوحات من لحم للتعبير عن الانتماءات، أو قل العِند.

فقال المسكين بعد أن حاول بلع ريقه فلم يجد ريقًا يذكر، فبلع الهواء الناشف:

ـ عظيم، إذن أجسادنا هي الوسيط الوحيد الذي نملكه ونقدر من خلاله على أن نروي ما حدث، ونثبت به أننا موجودون، حتى نكون «شهودًا له إلى أقاصي الأرض».

قال أخي بدون أن يخفي ضحكه واستهزاءه:

ـ صدَق مَن سمَّاك «مسكين» والله. أقاصي الأرض مرة واحدة؟! ولِمَ لا تقول إنها رغبة غير صريحة لإعادة صنع الجسد وإخضاعه لطراز معين؟ بصراحة أنا أرى أن الوشم لدى الأقباط

بمثابة علامة مميزة وواضحة ليكونوا هدفًا للتمييز والإدانة، ثم يبكوا وينوحوا بعد ذلك.

أوغل المسكين في التفكير، فلم يسعفه عقله أمام عقل أخي، فلجأ إلى حديث العاطفة الذي هو ماهر فيه ويتغلب به على الكل، وقال بقلب لا يتسع له جسده:

ـ أفي الكتب التي تقرأها عند الأجانب تصبح الضحية مذنبة وهي مَن أوشت بنفسها عن نفسها؟ وكل ذلك لماذا؟ لأن لدينا إيمانًا نطبعه على أجسادنا يوصلنا إلى الأبدية؟

صاح أخي مستدركًا، وهو الذي عقله كالشيطان الشاطر لا يبذل أي مجهود يذكر لإحضار الأفكار البعيدة من آخر الدنيا وإقحامك بها:

ـ لا تبالغ يا مسكين وتقول «أبدية»، فالبابا نفسه لا يُوشِّم صليبًا في يده. هي مجرد رموز دينية تلامس البقاء لكنها تعجز عن الإمساك بالأبدية.

دار كل هذا الجدل والوشَّام يدق لي صليبًا، ولا يبالي بألمي ولا بما يقال بين أخي وجوارجيوس المسكين. وكان أبي قد ضاق صدره من أخي تمامًا، ولكنه كان مهتمًّا أكثر بأمر وجعي. ومع انتهاء الوشَّام من وشم صليبي الجديد، انتهى نقاش أخي المتعالي بطرس مع جوارجيوس المسكين ذي القلب الذي في حجم الدنيا. وظن أخي أنه ألقى عظة منتصرة أقنعت جميع الأطراف، حتى تدخل الوشَّام ليحبطه وفي جانب فمه سيجارة كان قد أشعلها قبل

البدء بالوشم، وأخذت في التقهقر بصعوبة وتأخرت لتنتهي، ووجه كلامه لأخي وقال:

ـ كلامك مترتب ويكيفني يا سي الأفندي مع أني لا أفهم منه كلمة، ومن الواضح أنك ستكون شيئًا كبيرًا في المستقبل لا أعرف ما هو، ما رأيك لو وشمت لك وشمة مار جرجس كبيرة على كتفك لتحميك من العين الحاسدة، ولتتذكرني بها دومًا؟

ضحك أبي فضحكت خلفه، وتمتم أخي وسب الجهل والجهلاء بصوت خفيض، ثم تركنا وذهب إلى يسار الشارع من حيث أتى.

أوشية الشجرة

فتحت عينيَّ في الصباح على صوت مسجل عالٍ يأتي من الشارع بمدحة تقول:

جنينة خضرا وجالها الزهر بشَّرها

العدرا نايمة وجالها ملاك الرب بشَّرها

آلمتني يدي في موضع دق الصليب. نظرت إلى موضع الألم، فتذكرت ما حدث أمس في محاجاة أخي بطرس مع المسكين، وفظاظة أخي وغروره، وحماس المسكين ودفاعه، وقلت لنفسي: «قد يكون المسكين أخذ على خاطره من أخي، بالتأكيد أخذ على خاطره».

كان الجميع نائمين ما عدا أمي، فهي تصحو قبلنا وتنام بعدنا؛ أظن أن أمي لا تنام، وأظنها أيضًا لا تأكل، ومع ذلك تشع نورًا يا ربي. حتى قبل مرضها، كانت أمي هي أمي، تستيقظ قبلنا، تحضِّر لنا الفطور وتوقظنا بحنان. نفتح أعيننا جميعًا في غضب، وكأننا أولاد باشا وهي تعمل في القصر عندنا، أو كأننا نصحو لنخدمها، وفي الحقيقة هي وحدها التي تخدمنا، ونحن لا نقدم لها أي شيء يذكر في المقابل. جاء في بالي الآن أن أمي كفكرة تجسد عطاء الله بغير حساب. نحن لا نساعدها في شيء، حتى في وقت الطعام، كانت تأخذ أصغر قطعة لحم، بل تنتشها قطعًا وتوزعها علينا أنا وإخوتي وأبي، متحججة بأنها زهقت من اللحم،

وكانت تكذب طبعًا كذبها الأبيض، لأنه ليس هناك فم إنسان يمكن أن يزهق من اللحم.

صبَّحت على أمي وقبَّلتها؛ منذ أن مرضت أقبِّلها كل يوم وفي كل فرصة، أخشى ألا تكون معنا في اليوم التالي. وتذكرت أن أبي سيقدم حَملي ذبيحة للعذراء في المولد بعد أيام، كي تتشفع لنا العذراء عند الله وتُشفى أمي. وضعت لي أمي الفطور، وفطرت بخبز «بتَّاو» بللته أمي بماء من القِدر حتى يلين ولا يجرح جدار الفم من الداخل، وجبنة قديمة مالحة، وخيار، وقلت لها إنني سأنزل لألعب في المولد، وكنت في قرارة نفسي نازلًا للبحث عن جوارجيوس المسكين وتطييب خاطره. خرجت من الغرفة، حللت أواصر حَملي ورفعته وأجلسته على عنقي كالراعي الصالح، ودلفت من الحضير إلى السلَّم الحجري أبحث عن جوارجيوس في الدور الأرضي لـ«بيت المساكين» المعتم كالقبر، والرطب كصحن كنيسة قديمة. سألت أمه، أم المساكين، عن ابنها فقالت بدون قلق إنه لم يأتِ منذ اليوم السابق، ثم عادت تغني كلامًا غير مفهوم:

ضافني نجار ومعه حرة

جوني والوقت ليل

لم أجد مبيت بالأجرة

حتى يساع ضيفي الجليل

طفت أنا وأنا بالحيرة

أوجدت مغارة مظلمة

جاية مزحومة من الناصرة

حتى رسيت عندنا

خرجت من «بيت المساكين»، وكان المسجل الذي أيقظني من الشارع لا يزال يعرض ذاك الموال الذي صحوت على صوته. سألت الأطفال الشحاذين في الشارع إن كان أحدهم رأى المسكين اليوم، فأجاب جميعهم بالنفي، ثم سألوني عن شيء لله كي يفطروا، فلم أرد، اكتفيت فقط بأن أنظر إليهم نظرة حانية، وقلبي يشكر الله على نعمة أمي وخير أبي ويسأل الله أن يُديمها لي نعمة. خرجت من شارع «بيت المساكين» وصوت المسجل يتلاشى خلفي رويدًا رويدًا، حتى انقطع وابتلعته الأمتار بيننا. وصلت إلى فضاء الكنيسة القديمة، وعن يساري السور الذي يطل على حافة الجبل الذي في سفحه الغيطان والنيل، والجزيرة التي استضاف فيها جد المساكين العائلة المقدسة.

دخلت إلى الكنيسة القديمة لأبحث عن المسكين، علَّه يكون معتكفًا في صحنها، ولأشعل بالوقت نفسه شمعة للعذراء مريم وأصلي لها أمام المغارة التي اختبأت بها، لتشفي العذراء أمي من المرض. وللكنيسة العتيقة باب كبير تنزل منه سلمًا بثلاث درجات حجرية فتجد طُرقة بالعرض، وأمام الباب الكبير مباشرة باب آخر، أصغر، يدخلك إلى صحنها، ويمين الباب الداخلي

كومة من الأحذية المقطعة والبالية؛ وهي أحذية المصلين وطالبي البركة والشفاعة، التي ينزعونها على الباب قبل الدخول، لأنه لا يحق لنا الدخول إلى الكنيسة التي تقدست بالعائلة المقدسة بمداس أقدامنا. وأمام باب صحن الكنيسة، تبتلعك رائحة مقرفة خانقة لا يمكن وصفها؛ رائحة الأحذية، قل رائحة الفقر، وهي تعانق رائحة البخور والحنطة الخارجة من صحن الكنيسة. وعلى يسار الباب الداخلي، مكتب متواضع يجلس إليه رجلان، وهما من لجنة الكنيسة التي تتلقى النذور المادية والذبائح التي توهب للعذراء مقابل إيصال ورقي بقيمة النذر ونوعه، وخلفهما جدارية زرقاء من الفسيفساء، تصل إلى السقف، وتمثل منظر هروب العائلة المقدسة إلى مصر ومعها حمار وخلفهم الأهرامات العملاقة الثلاثة، وأسفل الجدارية حوض مستطيل مملوء بالرمل ليغرز فيه المصلون شمعاتهم التي يشعلونها كرامة للعذراء مريم وأسرتها. رجوت من الرجلين الجالسين إلى المكتب أن أترك حَملي معهما دقيقتين، كي أدخل الكنيسة وأصلي للعذراء وأخرج سريعًا آخذه، فرفض أحدهما، وقال الثاني إن ذلك ممنوع، ولكنه سيستثنيني ويسمح لي به لأنه يعرف أبي. ثم سألني:

ـ متى سيُذبح المعلم؟ لأنه وعدنا بربع للكنيسة.

وكان يقصد ربع حَملي. ضحكت بأسى وشكرته، وأخبرته بأنه خلال أيام بمشيئة المسيح. ربت على عنق حَملي وربطه بساق المكتب. وجِدت ناحية الباب الداخلي للكنيسة، وخلعت حذائي، ودخلت.

وفي الداخل كانت رائحة أحذية الفقر تتعانق مع رائحة بخور القداسة والحنطة، وتحتل أنفي أكثر، ولو أني كلما توغلت في صحن الكنيسة سيطرتْ على أنفي رائحة القداسة أكثر من رائحة الفقر، من دون أن تختفي تمامًا رائحة الفقر. أمام لجنة الكنيسة، خارج الصحن، الناس مقامات، يعامَلون حسب قيمة نذورهم؛ ينعم الأغنياء بالاحترام، ويُقابل الفقراء بأن ينهروهم، أو أضعف الإيمان بألا يشعروا بوجودهم، مع أن رائحة فقرهم تحتل المكان وتفرض نفسها بالقوة أمام اللجنة. إنما في صحن الكنيسة، أقصد أمام قلب العذراء، فـ«الكل سواسية كأسنان المشط» كما كان يُذكر في كتاب اللغة العربية، فالعذراء لا تريد منهم شيئًا، هي تعطي فقط، تعطي السلام والشفاء والرزق، بل أيضًا ـ وليسامحني الله إن تدخلت في شؤون قلبه ـ الله يحب الفقراء أكثر من الأغنياء الذين قال عنهم: «دخول جَمل من ثقب إبرة أسهل من دخول غني ملكوت السماوات». وفي الزاوية اليسرى لصحن الكنيسة، بجوار حجاب الهيكل الخشبي الأثري البُنيّ ـ الذي كان أكثر شيء بُنيٍّ رأيته في حياتي ـ تجمع أغلب الزوار حول رجل يحمل ناقوسًا؛ تلك الآلة الموسيقية الباقية في الكنيسة منذ أيام الأجداد المصريين القدماء تتكون من أسطوانتين مُجوفتين من النحاس الأصفر، وفي رأس كل منهما دوبارة يعقدها العازف في عُقلة سبابته، ويُصدر بضرب الأسطوانتين إيقاعًا جرسيًّا سعيدًا. وكان الشمَّاس يستعد بناقوسه لبداية فقرة لمديح العذراء أمام أيقونة كبيرة لها تحمل فيها طفلها الرضيع يسوع. مدحت العذراء مريم مع المادحين. أحب مديح القديسين، يشعرني بالسعادة، فلحن المديح وإيقاعه، والغناء الجماعي بلهجات بلدان الناس المختلفة، وأصواتهم المتباينة، تكسوني بنعمة لا أعلم مأتاها. بدأ الشمَّاس يقول بيت الشعر في مدح مريم على إيقاع ناقوسه كعادة كل مديح

كَنسي، والمداحون خلفه ينتظرون انتهاءه من البيت ليكرروه جماعيًّا وراءه، وعندما ينتهون منه، يدخل عازف الناقوس ويقول البيت التالي وحده. وكل أبيات مديح العذراء مريم تبدأ بشطر:

السلام لك يا مريم

وبعده شطر آخر جديد يختلف في كل مرة.

ثم اقتربت من المغارة التي سكنتها العائلة المقدسة ثلاثة أيام. هي مغارة ضيقة، مغلقة بباب من القضبان الحديدية، يمكنك أن ترى من خلالها ما بالداخل جيدًا. أحيانًا تكون المغارة مفتوحة للزوار، وفي أغلب الأحيان، تكون مغلقة في وجوههم. عمقها حوالي متر، وعرضها حوالي مترين، وسقفها أبعد من مترين ونصف المتر عن الأرض. تحول لونها ـ الذي كان قديمًا بلون الجبل الأصفر ـ إلى لون أسود سواد قعر قِدر الطهو، وأصبحت المغارة عبارة عن تجويف جبلي محروق وأسود من أثر قيد الشموع فيه، فالشموع تتقد في المغارة منذ ألفَي عام وربما أكثر. وكان الناس يقفون أمام باب المغارة ويمدون أيديهم من بين القضبان ويلقون في داخلها الأموال والنذور؛ أوراق مالية وقِطَع معدنية بفئات مختلفة، كل واحد حسب حال جيبه أو صعوبة طلبه.

وضعت يدي على القضبان الحديدية لباب المغارة المغلق، وكأني أنشد الحرية خلف قضبان سجن، مع أني خارج قضبان الباب لا داخلها، إذ رأيت المغارة الضيقة السوداء هذه أبرح من الدنيا كلها ورائي، وتأملت جدران المغارة التي أحرقتها الشموع المتضرعة

الساهرة لمدة ألفَي عام، وناجيتها، وقلت لأم النور بأعمق ما وصل إليه قلبي من صدق وإيمان، وهي العالمة بالأسرار:

ـ هربتِ من فلسطين إلى هنا لتحمي عائلتك من الهلاك، أنتِ أكثر من رأيته قاوم من أجل الغد والحياة والأسرة، أنتِ أكثر إنسان يعلم بما في قلبي، لو ماتت أمي فستحطمني الحياة تحت رحاها كحبة قمح ضعيفة، ستُفَتتني الأيام، ويحترق قلبي في لحظة ويصبح كقعر حَلَّة، بلون مغارتك التي أصبحت سوداء بهذا الشكل في ألفَي عام. مدي يدكِ واشفيها سريعًا، حتى لا يذبح أبي حَملي، فأنا أحبه هو الآخر.

لم أجد المسكين في الكنيسة، فخرجت من صحنها ولبست مداسي، وعادت رائحة الفقر خارج صحن الكنيسة تغلب رائحة القداسة، رائحة الدنيا نفسها تقريبًا. شكرت الرجلين، وحللت أواصر حَملي وحملته كالراعي الصالح، واجتزنا الباب الكبير فأصبحنا في الفضاء أمام الكنيسة. ألقيت نظرة على المقابر، لكن قلبي حدثني بأن جوارجيوس ليس فيها، وتذكرت أن جوارجيوس يجلس على الأرجح تحت ظلال الشجرة العابدة، على الطريق الزراعي أسفل الجبل، المؤدي إلى الدير. تبعد الشجرة بضعة كيلومترات عن الدير، والذهاب إليها مخاطرة لمَن هو مثلي، أخشى أن أتوه، أو أن يأخذ اللصوص مني حَملي، وأخشى أيضًا أن يعرف أبي أني تركت المولد والجبل كله وذهبت بعيدًا حيث الشجرة بدون استئذانه. ولكن كانت هناك رغبة مُلحة، «زنَّانة»، بداخلي للقاء جوارجيوس وتطييب خاطره، ورغبة أشد إلحاحًا منها في أن أعرف منه الفرق بين الراعي الصالح والأجير.

عقدت العزم على الذهاب إلى موضع الشجرة العابدة على الطريق الزراعي، لألتقي بجوارجيوس المسكين لأي سبب كان، لأني أحب سماع حكمته، بالإضافة إلى أني لم أشاهد الشجرة العابدة عن قرب من قبل، فدائمًا كان أبي يشير إليها في أثناء مرورنا بالسيارة في الذهاب إلى المولد والإياب منه، من وإلى مَرسَى المعدية وإليه، ولطالما كانت لديَّ رغبة في أن ألمس تلك الشجرة العابدة التي سجدت للعائلة المقدسة في أثناء مرورها، وكأن الطبيعة تسجد لابن خالقها.

والذهاب إلى الشجرة يعني النزول من الجبل العملاق المقدس عن طريق السلَّم الحجري القديم، وهو سلَّم عملاق، يتكون من أكثر من مائة وسبعين درجة، ويربط بين الدير على قمة الجبل والدنيا أسفله. اتجهت نحو السلَّم فوجدته مزدحمًا كعادته، يجلس الشباب على سوره الحجري يتسامرون ويدخنون ويعاكسون الفتيات. والزوار صاعدون وهابطون، والباعة متناثرون على البسطات يبيعون الملوخية الخضراء الطازجة وأقماع الجلاب الحلو، وبعض الألعاب البسيطة التي تفرح قلوب الأطفال. كان السلَّم كسوق مكتظ بالناس والبيع والضحك والكلام، وأنا في وسطه لا شيء على الرغم من فصاحتي، ولا يمكن رؤيتي بالعين المجردة، ولا يراني إلا مَن وُهب عيونًا في قلبه. وكان المدَّاح على مقربة من الدرجة الأولى يمدح على الربابة بحزن كعديد مأتم:

صارت تبكي وتنوح وهي بقلب كئيب

وهي تحزن وتقول يا خسارة مات غريب

أنا كنت عشمانة يا ولدي إن الجمعة دي عيد

أتتني يا ولدي بالبكا وعديد

يا نارك يا ولدي جوَّه القلب تزيد

ورأيت بعض النسوة الزائرات يكنسن الدرجات، فيا له من نذر شهير في جبل الدير، أن تنذر المرأة كنس هذا السلَّم الجبلي كله كرامة للعذراء ولأجل خاطرها العزيز، وكأن المرأة منهن تساعد العذراء في تنظيف بيتها، مثلما يفعلن مع صديقاتهن عندنا في المناسبات والأفراح والأحزان، وكثير من النسوة يأتين إلى الدير وفي خطتهن، قبل الاستمتاع والتبرك، كنس السلَّم والوفاء بالنذر. ورأيت على السلَّم أيضًا بعض الزوار، شيوخًا ورجالًا ونساءً ومراهقين، يصعدون وكلٌّ منهم يحمل حجر بلوك أبيض مستطيل البنيان، وهو نذر قديم قدم الزمن شرحه لي أبي ذات سنة، وقال إن الدير قديمًا كان في حاجة إلى بناء بعض المباني الجديدة فطلب الآباء الرهبان في الدير من الزوار أن تجلب كل أسرة معها السنة التالية حجر بلوك ليتمكن الدير من جمع الحجارة للبناء. وعلى الرغم من مرور سنوات طويلة على الانتهاء من البناء والاكتفاء من الحجارة، بقي نذر حمل الحجارة هدية للعذراء ولم ينتهِ. نسيَ الناس السبب الحقيقي وراء حمل الحجارة للعذراء، حتى بعدما أصبحت الحجارة المجلوبة من بلدانهم بلا فائدة، بل أصبحت عائقًا بسبب تراكمها أعلى السلَّم بلا وظيفة أو فائدة، مثل كل العادات من حولنا. وبات نذرًا راسخًا رسوخ العقيدة والزمن؛ أن ينذر بعض البسطاء ذهابهم إلى العذراء حاملين حجر بلوك، وينذرون هذه المشقة من أجل عيون العذراء لينالوا رضاها

وعفوها طامعين في نظرة، بل منهم أيضًا مَن ينذر أن يأتي إلى جبل الدير من القرى المحيطة مشيًا على الأقدام، مسافة طويلة نحو مسيرة يوم من هنا ويوم من هناك، يحمل الناذر أغراضه ومعها حجر بلوك ثقيل، ويظن أنه كلما زادت مشقة الذهاب إلى العذراء زاد معها رضا أم النور عنه وفاضت أكثر ببركاتها عليه وعلى مَن له.

انتهى بي السلَّم إلى الطريق الزراعي. نظرت أمامي فوجدت الجزيرة التي استضاف فيها جد جوارجيوس المسكين العذراء مريم وأسرتها، وأسقطت عليها الساحرة الشريرة الصخرة الضخمة لتتخلص من الطفل الذي سيصبح ملك الملوك، ولكن الله ـ والحمد لله ـ بدد للساحرة مشورتها الشريرة، ومشيت محاذيًا للغيطان عن يميني، وعن يساري كان جبل الدير. وأصدر حَملي عدة ثغاءات فرحًا بمنظر الغيطان الجميل، فقلت له إنه على حق، فهو حقًّا منظر مبهج لتلك الأرض التي ما من شيء إلا وينمو فيها، والمفعمة بكل منظر حسن.

وجدت على الطريق عربة «كارو» يجرها حمار ويقودها مزارع فقير ومعه أسرته، وتصدر منها أصوات مغنَّاة بعيدة غير مفهومة، مصدرها جهاز مزدوج الفائدة يعمل بالبطارية، يستخدم من الأمام ككشاف ينير الظلام لكثرة انقطاع النور في القرية البائسة ليلًا، أو لندرة اتصال البيوت بالكهرباء، وفي جانب الجهاز مسجل صوت، وكان شريطه يصدح بالموال نفسه الذي صحوت عليه اليوم. مروا بجواري وهدأوا سرعتهم، وقالت الزوجة بحنان:

ـ اركب يا بني، الحَمل ثقيل على ظهرك.

قفزت على ظهر آخر العربة «الكارو»، ولم يسألوني مَن أنا أو إلى أين أنا ذاهب، وموَّال المدَّاح نفسه، الذي كان يغني قطعة نثر محكية على المسجل، يطربنا على إيقاع تكتكات حدوة الحمار الهالك من العمل على أسفلت الطريق:

لما ظهر فيها الحمل

وجت تولد المسيح

اتولد في مذود بقر

هو ما كنش فقري

بس اتولد في المكان ده

علشان يعلم الناس المتكبرين التواضع

فقال العربجي:

ـ ومَن يسمع؟ ومَن يتعظ؟

وقالت زوجته:

ـ الله أكبر على كل ظالم ومتجبر.

وبعدها صاح العربجي في ابنه الطفل يداعبه:

ـ نمت يا محمود؟

وكنت أظنهم أقباطًا مثلنا! ففي بلدنا لا يمكن أن تفرق المسلمين عن الأقباط إلا عند معرفة أسمائهم. وجدت الشجرة العابدة تقترب عن يمين الطريق، وجوارجيوس تحتها يستظل بها، وفي يده اليمنى ورقة شجر يفر ساقها بين إصبعيه، فتدور الورقة حول نفسها بسرعة تجعل التركيز في أحد وجهيها مهمة مستحيلة. نزلت من العربة «الكارو» البطيئة وهي ما زالت تسير، وأخذت حَملي ووضعته على كتفيَّ كالراعي الصالح، وشكرتهم، واقتربت من المسكين وألقيت عليه التحية، وقلت له:

ـ قلبي حدثني أنك هنا.

فقال:

ـ يا له من قلب متصل مع الحقيقة.

قلت وأنا أتأمل الشجرة:

ـ وأنت أكثر المتصلين.

فقال وهو ينظر إلى الأرض كأنه شبع نظرًا إلى الأعالي:

ـ لماذا نزلت من الجبل؟

دُرت حول الشجرة العابدة التي يقولون إنها سجدت للعائلة المقدسة، فوجدتها كما يقولون مائلة على عكس الأشجار كلها، جذعها غليظ ولكنه مخوَّخ، تنمو بشكل أفقي، لونها بُني محروق، وأوراقها متعبة، على الرغم من أنها على ضفاف أكبر نهر في العالم، وتشرب من خيره بغير حصة أو حساب، ومع ذلك ضربها الفقر والقداسة مثل كل شيء في جبل الدير، نعم هي بعيدة عن الجبل، ولكن يبدو أن نحس الأشياء أو قداستها يضربك إن كنت تُذكر معها في جملة مفيدة، مهما كان موقعك منها. وقلت للمسكين كأني تذكرته فجأة:

ـ جئت لأطيب خاطرك من أخي، وأرى الشجرة العابدة عن قُرب.

فقال المسكين، كالذي تخطر على باله ردود جيدة لمواقف معينة، ولكن ـ ويا للأسف ـ بعد انتهائها، فيخزن ردوده في قلبه وينتظر أنسب فرصة ليستعرضها، حتى أمام ناس لا شأن لهم بما حدث في الموقف الأصلي:

ـ ما زال قلب أخيك صغيرًا، وهو يظن أن هناك لذة في طعن كل لذة، فما أغبى الإنسان الذي يظن أن بإمكانه تغيير جلد عاداته ولونه دفعة واحدة كما يسعى هو! نحن بشر يا بُني لسنا أفاعي.

قلت وأنا أسترجع هزيمته المدوية أمامي على يد أخي، وهو مَن يُعد نفسه مُعلمي الجليل:

ـ سامحني إن كنت لم أؤيدك في الجدال أمس.

فتذكر المسكين مكانته التي يسعى إلى ترسيخها في ذهني وقال:

ـ لا عتاب على مَن كان يذوق لحظة ألم نادرة الحدوث. وأنت ما زلت صغيرًا جدًّا، شكاكًا جدًّا، ونحن عند الشك نخاف أن نرسو على شاطئ، فنستمع إلى الجميع حائرين تائهين، تتلفت أعيننا بغير دليل.

فاطمأننت أني خارج دائرة الصراع، وقلت لأثبت هذه الوضعية:

ـ أنا في حيرة بين كلامك وكلام أخي؛ أحب قلبك، ولكني لا أقدر على عدم التفكير مع أخي.

فقال متظاهرًا بأنه غير مبالٍ، ولكن بلهجة مَن لا ينسى أبدًا هزيمته حتى لو بعد حين:

ـ أخوك عائش في دور كاشف أغاليط الأزمنة القديمة، ولكن ليستبدل بها أغاليطه الحديثة، وعلى كل حال هو حر، يذهب كل منا إلى السماء من الطريق الذي يؤنسه.

ومثلما يكون لديك سؤال أخير لمُعلمك وهو يلملم أشياءه للرحيل من الفصل بعد أن دق جرس الحصة، قلت:

ـ وفي أي زاوية أنذر قلبي؟ وفي أي اتجاه أترك عقلي في هذه الحياة؟

فقال وكأن أمانته وخزته في جنبه، فنسي صراعه القديم مع أخي، وتحول إلى رجل آخر له موقف آخر، معتدل:

ـ الأسلم يا ولدي أن تفعل كقول رجل حكيم قديمًا: «المعدة التي ترفض جميع الأغذية ليست أصلح المعد».

وحدث بعد ذلك أن تجاهلني المسكين كأنني هواء في سماء، وأراح ظهره على جذع الشجرة العابدة المائلة، وفرد ساقيه، ووضع كعب قدمه اليمنى، المشقق كأرض عاطشة، على كاحل قدمه اليسرى، ومد يده إلى جعبته وأخرج منها كتابًا قديمًا مهترئًا لونه كلون الشجرة العابدة وحاله كحالها، وصفحاته بلون وجه المسكين الدخاني العتيق. وبعدما فتح المسكين الكتاب، رأيت رسومات لبشر بوجوه حيوانات وطيور، وحروف قديمة لا أعلم ماذا تعني. أخذ يقرأ بلغة لا أفهم معانيها، موسيقاها جديدة على أذنيَّ أو قديمة عليهما، لا أعلم. جلست بجواره بأدب وبصمت، لأنه كان يقرأ في خشوع قارئ للإنجيل المقدس، وبتلاوة تشبه إلى حدٍّ ما تلاوة مقرئي القرآن الكريم في الإذاعة المصرية. وبعد أن قرأ المسكين لمدة لا أذكر إن كانت طويلة أو محتملة، التفت إليَّ، وحدثني بأسرار، وخصني بأمانات أسأل الله أن يقدرني على الوفاء بها يومًا ما!

ثم غابت الشمس وصارت العتمة، وكنت قد اقتربت من «بيت المساكين» عائدًا وحدي، بعد يوم أرهقني فيه البحث عن جوارجيوس المسكين، وأوجع ظهري حمل الحَمل والتجوال به، والحديث عن الأسرار، وصعود الدرجات العملاقة لسلَّم جبل الدير، وفي قلبي خوف من أبي، فهو سيسألني بالتأكيد أين كنت طيلة اليوم. وكان المدَّاح يغني في أول شارع «بيت المساكين»، بعد أن بُح صوته من كثرة المدح طوال النهار:

ده مِن بَعدك يا ضنايا أنا ما أترجى غياب

ومين بعدك يا ضنايا يفتح عليَّ الباب

يا وجهك الغالي كيف يدخل تحت تراب

يا ليت موتي يا ولدي كان سابق من قبلك

ولا كنت أنظر المسمار كيف دقوه في يدك

دخلت «بيت المساكين»، وصعدت السلَّم، وكلما اقتربت من غرفتنا سمعت ضجيج حوار ساخن، كل جملة تزيد من حدته وكل درجة تقربه إلى أذنيَّ فينقبض قلبي. دخلت غرفتنا المستأجرة في «بيت المساكين»، فوجدت القس ساويرس، راعي الكنيسة الجديدة في جبل الدير ووالد دميانة حبيبة أخي بطرس، يجلس في غرفتنا على الحصير متربعًا، بفراجيته(*****) السوداء الطويلة

وقلنسوته السوداء التي تشبه قبة الكنيسة، وحذائه الأسود، ولحيته الطويلة الكثة التي تصل إلى نصف صدره ولونها أسود وأبيض، وصليبه الجلدي الأسود الطويل ذي النقاط البيضاء في وسطه المعلق في عنقه، ومعه أمي وأبي وأخي ومساعده الشمَّاس.

كان القس ساويرس رجلًا في الخمسين، متخمًا باللحم، يتنفس بصعوبة ويلصق ببعض الكلمات «شخرة» من صعوبة تنفسه نتيجة كثرة الدهن على قلبه، وجهه أحمر مورد، ولا أعلم كيف يكون هذا الجسد قد ذاق الصيام ولو مرة! أمعقول أن هذا الجسد المتخم يصوم مثلنا مائتي يوم ويوم سنويًّا؟! يده ناعمة حمراء بأظافر مقلمة، كأنها لم تذق يومًا جهد العمل كباقي الرجال. وكان معه مرافقه، الشمَّاس الأربعيني النحيف ذو الوجه الممصوص، والعينين الغائصتين في جمجمته المستطيلة، بجلبابه الأبيض المقلم بالطول بخطوط زرقاء، وحذائه البالي الذي كعَّب كعبه ليسهل لبسه كـ«البنص» وليخدم كسَله. يحمل الحقيبة للقس، ويساعده في بعض الأمور لإجراء الطقوس، مثل طقس القنديل المقدس.

وكان سبب ارتفاع نبرة الحديث أن القس ساويرس، أبا دميانة، يحذر أخي بطرس من الاقتراب من ابنته دميانة مرة أخرى، والضحك على عقلها بأفكاره المهرطقة عن الحب والحرية، وكل ذلك الهراء الذي يجعله «يأكل بعقل البنات حلاوة». ثم أقسم أبونا ساويرس بالإنجيل المقدس إنه لن يقبل بزواج ابنته من شاب مثل أخي يصلي في كنائس غير كنيستنا الأرثوذكسية ذات الإيمان المستقيم، ويتحدث باستخفاف عن طقوس الدين ورجاله.

كانت حقًّا مبارزة بين مغرورَين؛ أخي المغرور بعقله وسطور الكتب، والقس المغرور بإيمانه ودرجته الدينية، وفي الواقع كان كل منهما يعامل الناس من حوله باعتباره يحمل الحقيقة الوحيدة، وبكونه الناجي الوحيد في فُلك الخلاص، وكان كلما هب بطرس للرد على أبينا ساويرس، نهره أبي ومنعه عن الكلام، لأنه لا يجوز محاجة رجال الله، وزيادة على ذلك كان الرجل ضيفنا. فكان أخي يصيح من وقت إلى آخر: «ما جرمي؟ ما خطيئتي؟».

ثم أنهى القس التحذير، وساعده مرافقه الشماس وأبي في النهوض بجسده الثقيل من على الحصير بصعوبة، وقال بعد أن استقام ورفع صليبه الخشبي في وجوه الحاضرين:

ـ والآن نصلي صلاة القنديل المقدس كي يشفي الله الست أم بطرس من مرضها.

ثم نظر إلى بطرس بضيق ماكر وأضاف:

ـ وكي يهدي الله الضالين منا.

صلاة القنديل سر من أسرار الكنيسة السبعة، واسمه أيضًا «سر مسحة المرضى»؛ هي صلاة غير محدودة بمكان، غالبًا تكون في المنزل لمباركته والصلاة من أجل شفاء المرضى غير القادرين على الذهاب إلى الكنيسة. وكانت صلاة القنديل في هذا اليوم من أجل التضرع لله ليشفي أمي من السرطان، كما فهمت من الحديث، لأنه كان قد اشتد عليها في هذا اليوم الذي قضيته في البحث عن المسكين.

حضرت صلاة القنديل للمرة الأولى بعد تلقي خبر مرض أمي، وزارنا قس كنيستنا، التي بجوار بيتنا، في المنزل وأقامها. وفيها نصلي سبع أواشي ـ والأوشية هي الابتهال ـ وننير سبع فتائل، ونرفع قلوبنا لله، ونطلب من أجل كل المرضى والحزانى.

أشعل الشمَّاس، المرافق للقس ساويرس، نار الشورية، تلك المبخرة التي تشبه كأسًا من الفضة لها غطاء، وتُمسَك من أربع سلاسل في جوانبها، وطول كل سلسلة نصف متر تقريبًا. وتمسك هذه السلاسل بعلَّاقة في الأعلى تشبه علامة الاستفهام، يتناولها القس والشماس بين أصابعهم ويرقِّصونها في الهواء، فيزداد اشتعال بخورها الأزرق العَطر، ويملأ المكان برائحته الزكية، وترسم بيننا سحابات صغيرة في فضاء الغرفة، فيتنسم الرب رائحة الرضا.

ثم قال الكاهن بصلاة مُلحنة:

ـ أعطيت نعمتك أيها المتأني على أيدي رسلك الأطهار يا محب البشر، لكي يشفوا بمسحتك المقدسة كل ضربات وكل أسقام الآتين إليك وإلى مواهبك بأمانة، فالآن أيضًا طهِّرنا بيمينك من كل مرض.

قلنا خلفه مُرتلين:

ـ يا رب ارحم.

فزاد الكاهن من المناجاة باللحن نفسه وقال:

ـ واجعلنا مستحقين بصلاحك إلى فرحك غير الفاني، وارشم الآتين إليك بأمانة ليكون لهم خلاص ونجاة من أمراض النفس والجسد عندما يدهنهم كهنتك، كما قلت على فم يعقوب تلميذك.

قلنا خلفه مُرتلين:

ـ يا رب ارحم.

وتنغم القس وأضاف:

ـ أنت يا رب من البدء، بغصن الزيتون، أظهرت أنه قد مضى الطوفان، وبمسحتك المقدسة وباسمك أيها الرؤوف الرحيم، خلص عبيدك المؤمنين باسمك، بشفاعة العذراء أُم الخلاص.

قلنا خلفه باللحن ذاته، المائل النازل يشرب من البحر:

ـ يا رب ارحم.

واستمرت الصلوات لمدة نصف ساعة من الدعاء والمشاركة بيننا وبين الكاهن، وقلنا في الصلاة: «يا رب قدِّس أفكارنا»، وكان الزيت قد تبارك وتقدس لأنه حضر معنا الصلوات، فأحضره القس ورشم به حناجرنا وقال، وقلنا معه:

ـ يا رب قدِّس أقوالنا.

ثم رشم بالزيت المقدس أيادينا وقال، وقلنا معه:

ـ يا رب قدِّس أعمالنا.

وقال القس في آخر قنديله:

ـ أيها الرب الرؤوف الشافي أنفسنا وأجسادنا، قَدِّس هذا الزيت ليكون لكل الذين يُمْسَحون به شفاءً من أدناس الروح وآلام الجسد، لكي يتمجد اسمك القدوس بهذا، لأن لك المجد والقوة والخلاص. ونرسل لك إلى فوق المجد والكرامة، أيها الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

وانتهت صلاة القنديل، وقبَّلنا كلنا يد أبينا ساويرس، ما عدا أخي بطرس، فهو لا يقبِّل يد القساوسة، بل يقبِّل يد بناتهم. وكنت أشعر أيضًا أن بطرس يقف في الصلاة وكل صلاة بخشوع، ولكني أظن أن قلبه يكون غير متفاعل مع الصلاة، لا أدري، الله أعلم.

ثم جمع الشمَّاس النحيف أدوات الصلاة في شنطة سوداء، وكان بطرس قد رحل قبلهما فور انتهاء الصلاة، ثم نزل القس والشمَّاس ووراءهما أبي لكي يعطي القس أجر الصلاة على السلَّم، بعيدًا عن أعيننا، لأنها عادة مستحبة حتى لا يُحرج راعي البيت القسيسَ راعي الكنيسة ورجلَ الله أمام خلق الله.

تأخر أبي ولم يعد إلى الغرفة، وكانت أختي الصغيرة نائمة طوال الصلاة، والتعب كان قد اشتد على أمي فنامت بجوارها، وجلست أنا بجوار أمي بعد أن أغمضت عينيها وغفت سريعًا على غير عادتها، وظلت تئن من ألم المرض حتى وهي غارقة في النوم. يا له من ألم لا ينام! يا له من أنين لا يطاق! أوجعت قلبي بوجعها،

وألهمت شفتيَّ بسكونها، فظللت أناجي السكون والصمت من حولي، وترنمت بقلب أوسع من قلبي وكلام أكبر من كلامي:

ـ آه يا أمي، وجهكِ وجه النيل، وجمالكِ مثل جريان النهر في سلام، وعزة نفسكِ كأعمدة كنيسة مصرية شامخة منذ قرون، وكلامكِ مثل التسابيح، مثل الماء المتدفق، عيناكِ منيرتان كبيت القمر، ووجنتاكِ حاملتا قرابين، وعندما تقفين لتصلي أمام شمعة ينعكس نورها على وجهكِ فيكتسي بالذهب. آه يا أنين أمي، ارحم صاحبة القلب الفرح دومًا، يا أمي أنفاسكِ هي الماء والهواء والمسرة والسلام للقلب، وجسدكِ هو السماء الراضية، فليشفه رب السماء والأرض...

وغلبني النعاس فنمت على خصلات شعر أمي السوداء التي كانت كبوابات نجم في ليلة ظلماء.

أوشية الصوت

أدخلني جوارجيوس المسكين إلى مغارة مهجورة رطبة شديدة العتمة. أضاء قنديلًا ففج النور وبدد الظلام، ورأيت عن يميني جدارًا شاهق الارتفاع، وفي أعلاه، بالقرب من السقف، رُسمت أيقونة باهتة للمسيح والرسل، بينما نُقشت على جزئه الأسفل، الموازي لقامة الإنسان، وعلى كل الجدران الأخرى، آيات قرآنية تصارع الزمن، فبهت بعضها، وبقيت من بعضها كلمة أو كلمتان فقط، والباقي محاه الزمن، إلا آية واحدة، وجدتها جلية بهية، مزينة للناظرين، تقول: «ئۈ ئۇ ئې ئې ئې ئى ئى». نظرت إلى جوارجيوس المسكين في قمة التعجب وقلت له:

ـ ما هذا يا عم جوارجيوس؟

قال:

ـ هذا المكان كان مسجدًا يتعبد فيه المصريون المسلمون، فنقشوا عليه آياتهم المقدسة.

قلت له، كما لو أني أعرف أنه مسجد ولا أقصد السؤال عن شيء بديهي:

ـ ولكن هناك في الأعلى أيقونات قبطية، فكيف كان ذلك؟

شعرت أنه كان يتمنى أن أطرح هذا السؤال، حتى لا يبدو الكلام، الذي ينوي بشدة أن يقوله، استعراضيًّا مفتعلًا، وليس عليه طلب

ولا هناك ضرورة منه. قال:

ـ لأن هذا المكان كان أيضًا كنيسة يتعبد فيها الأقباط قديمًا قبل المسلمين، فزينوا حوائطه بأيقوناتهم المقدسة.

تجولنا في المغارة، وكانت كل الحوائط على هذا الوضع؛ آيات قرآنية مرسومة على بقايا أيقونات قبطية. ووجَّه جوارجيوس المسكين قنديله إلى ركن من أركان المغارة، فرأيت فيه تمثالًا رخاميًّا أبيض لرجل عارٍ، يجلس ساندًا رأسه الجميل على قبضة يده اليسرى الممسكة برسالة ملفوفة، وقطعة قماش طويلة فضفاضة تلف جسمه وتتدلى من على كتفه لتستر عورته، وذراعه اليمنى مكسورة وأنفه وأذناه مكسورة، فتشعر بأن حتى قلبه، غير المرئي داخل الحجر، مكسور هو الآخر. وقال جوارجيوس إنه تمثال لشاعر روماني حكيم، كسره أصحاب الأفكار اللاحقة لأنه صنم وثني. وعندما اقتربت أكثر من الأعمدة وتأملت الأسقف، وجدت النقوش المصرية القديمة شامخة أبية عتيقة، تتحدى الزمن وتقف بالند لمحاولات محوها وإغراءات الأزمنة بنسيانها. ثم سمعت صوتًا عميقًا عظيمًا جاء من كل مكان ـ من خلفي ومن أمامي، من فوقي ومن تحتي ـ يقول في قلب الظلام الذي كان لونه كلون الطمي على ضفاف النهر:

ـ هنا تجلياتك في عينيَّ، تعالَ إلى إرثك.

ارتعدت وتشبثت بالعم جوارجيوس، فقال لي:

ـ لا تخف، أصغِ فحسب، ليسقط شعاع الشمس عليك مخترقًا الظلمة في قلبك.

فأجبت الصوتَ العظيم المجهول بصوتي الطفولي المرتعد:

ـ إنك تتحدث، ومع ذلك أنا لا أسمع ما تقوله بأذنيَّ، فكأنك تتحدث من داخلي. معك، أنا لست بحاجة إلى آذان. إني يا سيدي في حضرتك، ولكن حواسي كلها قد ذهبت. فمن خلف أي حائط من هذه الحوائط تتحدث يا سيدي الصوت؟

فقال الصوت؛ وإن كان للسنين صوت فسيكون بلا شك هو:

ـ أنا صوتهم جميعًا بالعدل، أنا النهر الذي لا يتسيد على مائه أحد، هل تقبل أن تكون راعي البوابات وحارسها الصالح؟

قلت له برعشة فرحة وقلقة في آنٍ:

ـ هذا شرف عظيم يا سيدي الصوت، ولكني في المدرسة وما زلت صغيرًا.

فضحك الصوت بوقار ملكي، ثم قال بثقة مدروسة:

ـ لا تخف يا صغيري، يا مَن تشبه الفيضان الأسمر الرائع، فأنا، الذي براحه براحك ومكانه مكانك، سأساعدك.

تجاذبني السرور والرعدة، وقلت:

ـ وما المطلوب من صغيرك أيها السيد الصوت؟

فقال:

ـ أريدك أن تكون كاتب الحقيقة الذي يحرس الجميع بقلمه، وتقيم كلمتك بالعدالة على ضفتَي الوادي، وتشع نورًا لمَن لا يعرف النور، وتكون سيد القانون، وناصر الضعفاء، وحارس الفقراء وأشيائهم.

قلت، وأنا أعلم في قرارة نفسي أني صغير على جميع ألطافه:

ـ كيف لي يا سيدي الصوت أن أفعل ذلك؟

فقال:

ـ انظر إلى كل الحوائط حولك، وإلى رقائق أزمنتها فوقك، وإلى السماء الحجرية الأبية التي تظللها وتظللك، ثم استمع إلى صوت قلبك، وتحدث بما يخطر من أفكار في ذهنك، وكن لها. هيا انطق أيها الصغير، يا مَن تشبه الفيضان الأسمر الرائع.

فوجدت نفسي أقول كلامًا لا أعرفه، لكن كأني سمعته من قبل وسُجل على جدار قلبي حتى قبل مولدي؛ كلام زُرع في قلبي من أزمنة سحيقة، يشبه الذكريات القديمة صفراء اللون، كفكرة أن ترى أحدًا للمرة الأولى وتشعر مع ذلك أنك رأيته من قبل، هذا بالضبط ما شعرت به، فظللت أرتل الأشعار الآتية، وقدماي تسيران بخطوات القدر داخل هذه المغارة المظلمة، وأقول:

الشجن يخيم على مصر

أنا أمتلك الوهن بقلبي

أنا أمتلك القوة بقلبي

ما أكره هو الظلم، ولا أريد رؤيته

أنا ابن الذين شاركوا في ملحمة زهق الباطل

لساني وعيني دليلاي للحق

أحضرت معي كل ما هو ضد الشر

قضيت الليل داخل عينيَّ

أنام فأموت فأولد من جديد كل يوم

أتجدد ويعود شبابي يومًا بعد يوم

أُسرع لعدل الحياة على رموش الليل

أنا لست كالنهار، أنا أكثر إشراقًا من كل شيء

أشع نورًا لمَن لا يعرف النور

فمي لي لأتكلم

أنا سيد فمي

وساقاي لأمشي

قدماي لي للأبد

ويداي هما لي كي أدفع أعدائي

قلبي لي وقد قويته

قلبي الذي هو في بيت القلوب، هو قلبي يسكُنني

أنا سيد قلبي وأتحكم في صدري

أتحكم فيما تفعله روحي وتتمناه

أنا شاهد الحقيقة على الأرض

لن أنشر الخوف ولن أكون أصمَّ عن الحق

إني سأصون الأسرار، وأفتح الأفق، وأجتاز الأرض حسب الأصول

وجهي منفرج وقلبي مكانه وكلمتي أعرفها

أنا أفرح لأن المحروسة محروسة

أنا «أمس الذي رأى الأبدية»، هذا هو اسمي

أنا «أمس الذي رأى الأبدية»، هذا هو اسمي

وأخذتني التجليات إلى باب ضيق، أخذني الباب الضيق من المغارة، فخرجت في النهار، وكانت الشمس كجمرات محرقة، ونظرت بجواري فلم أجد جوارجيوس المسكين...

* * *

سمعت قهقهات كاد صداها يهز جسدي ويحركه، استيقظت بعد أن برقت في ذهني ومضة، ففتحت عينيَّ ووجدت أمي توقظني، وإخوتي يضحكون عليَّ، وقال أخي:

ـ لبستك روح المسكين وأصبحت ترتل الهراءات مثله.

وقال أبي:

ـ أصبحت تحلم بصوت، ها هي الأحلام تتكلم.

وقالت أمي:

ـ يا حبيبي أصحيك منذ ربع ساعة وكأنك في «بِنج».

ثم قال أخي:

ـ بمَ كنت تحلم أيها الكاهن القديم؟

قلت لهم:

ـ لا أتذكر، لا أتذكر.

أوشية الاكتشاف

فطرت، وأخذت حَملي، وحملته كالراعي الصالح، ونزلت سريعًا على السلَّم لأبحث عن جوارجيوس المسكين وأقص عليه حلمي الغامض العجيب هذا، علِّي أجد لديه تفسيرًا، فهو مَن فتح ذهني على الأسرار وأحلامها السرية. وجدت أمه، أم المساكين، في منتصف النقطة المعتمة شديدة العتمة من «بيت المساكين»، حتى في وضح النهار، يسارها ضوء الله آتٍ من بئر السلم، ويمينها ضوء الله آتٍ من باب «بيت المساكين»، وكانت تملأ القدور ماء. سألتها عن ابنها، وكانت غارقة في أغانيها القديمة التي لا أفهمها:

يا حبوش أنتم حلاوة

يا قناديل الذهب

كم سبيتم من أمارة

كم فتنتم من عرب

يا حبوش حلوا العداوة

واتركوا عنكم الغضب

من دخل قلبه القساوة

ربنا عنه احتجب

لم تجبني أم المسكين حتى أنهت تلك الأغنية المبهمة. ثم قالت:

ـ عند الكنيسة القديمة.

خرجت من «بيت المساكين» إلى الشارع، فوجدت جزارًا يذبح أضحية في وسط حلقة أصحابها الناذرين، والجميع سعداء كما لو لم تكن ذبيحتهم تُعذَّب وتموت. كانت الذبيحة المعذبة، التي تشبه حَملي كأنهما إخوة، تلفظ أنفاسها الأخيرة وتحرك قدمها اليمنى الأمامية بحركة خفيفة متأنية ومتعبة ومدهشة، تشبه تحية يد الإنسان بالسلام عند الرحيل عن المكان. وكانت الذبيحة التي جادت عن أصحابها إلى الله بدم كريم وفير، قد تركت بقعة دماء واسعة كبحيرة صغيرة في الأرض الطينية المتعرجة، وغزارتها أغرت الأطفال قبل الكبار بأن يلطخوا كفوفهم بوحشية سعيدة في دمائها، ويطبعوها على جدران بيوت شارع المساكين، كأنهم يذكرون العذراء بما عليها. شعرت أن حَملي ارتعد من منظر الذبح المخيف، ويخشى أن يلاقي المصير نفسه بعد قليل إذا لم أتمكن من حمايته. ولكن يا حَملي ماذا أفعل؟ أمي مريضة، وأنت جئت في الأساس كذبيحة. ليتك كنت كلبًا يا حَملي حتى لا تقدَّم ذبيحة، فالكلاب لا تؤكل، ولذا لا تقدم كقرابين على محرقة الرب. يا حَملي أنا أفعل كل ما في وسعي.

انتهى شارع المساكين، فرأيت من بعيد جوارجيوس المسكين في ساحة الكنيسة القديمة كما قالت أمه، يجلس وحوله أطفال القرية الجوعى الحفاة. يظهر أنه يحكي لهم حكايات عن أمجاد الماضي تصبرهم على الفقر، فقد تكون حكاية منها رطبة تخفف عن أقدامهم الحافية سخونة الأرض في الصيف الحار، وقد تسد

حكايات العز والمجد والكرامة شيئًا من رمقهم وتريحهم، ولكن احذر يا مسكين أن تتلبسهم الأحلام الغامضة، هم أيضًا، وقفت أمامه وقلت له:

ـ حلمت حلمًا عجيبًا وكنتَ معي فيه، أريد أن أحكيه لك.

فقال بدون أن ينظر إليَّ أو يرحب بوجودي:

ـ لا تفعل ذلك، بل خزنه في أسرارك.

قلت:

ـ وما الحكمة؟

فقال بدون أدنى فضول:

ـ افعل هذا إن كنت تريد أن تتقدم في فن الحكمة.

قلت كالذي يبحث عن سماوات أعلى:

ـ طبعًا أريد.

نظر إليَّ أخيرًا بثقة مختبرة لطريقة أثبتت نجاحها معي من قبل، وأنشأ يقول:

ـ إذن اسمع لصوتي فأنصحك؛ كلما أخَّرت البوح، كان بوحك أكثر حكمة وشجاعة. لا تنشر أحلامك قبل أن تختبرها بالقلب.

قلت وأنا في قمة ضيق القلب:

ـ ولكني سأنفجر فضولًا إن لم أفهم، كان صوتًا لا أفهمه، صوتًا يحب الإنسانية المسكينة من كل قلبه.

فقال بلا تأثر:

ـ أحِبَّها مثله إن كنت تريد فهمه.

فقلت وقد امتلأ وجهي بآثار حِمل ليس لسنِّي:

ـ لا أعلم إن كانت الأحلام أوهامًا مضحكة أم حقائق مكرمة.

أجاب المسكين كما لو أراد أن يُسرب لي معلومة بدون التورط في فعل بوح كامل:

ـ الأحلام هي الستار الخفي الذي تستر به الحقيقة وجهها فينا، اتبع صوتها إن كنت ذا قلب.

زادت حيرتي وقلت:

ـ كيف أتبعه إن كنت لا أدري ما يجب عليَّ فعله!

فقال بصوت بعيد كالعالق في بئر عميقة:

ـ فسر الأحلام كيوسف، وقتها ستصل إلى أرض الحقيقة، بل ـ مَن يعلم؟ ـ يمكن أن تُجلسك الأحلام المفسرة على عرشها.

عجز عقلي عن فك الشفرات، وعن ربط الأشياء، وعن ترتيب النصائح، فاستطرد المسكين بسؤال ليطيح بما تبقى من عقلي الصغير:

ـ هل فكرت من قبل، يا أيها الراعي الصالح الصغير، فيما يجعل الإنسان مكتشفًا لأشياء غير مكتشَفة؟

قلت بسخرية وضيق:

ـ لا.

قال وهو يقدِّم ذقنه الدخاني النحيف ويُرجعه كتنقل القلم على الورقة من كلمة إلى كلمة:

ـ استبصار خيط نظام يربط بين الأشياء التي هي في فوضى وكركبة.

دُخت، ووضعت يدي على وجهي كي أريح ذهني وأنظم عمله لثوانٍ من هراءات المسكين المتتالية، ثم كشفت وجهي لأسأل المسكين أن يبسِّط لي ما قاله، فلم أجده لا هو ولا الأطفال الذين كانوا حوله!

أوشية الموهبة

عاد أخي بطرس وأيقظني بهدوء، فصحوت من نوم العصاري الذي يولِّد عطشًا غريبًا، وطلب مني أن أتبعه لأننا سنقابل عبد الفتاح التهامي. شربت ماء وذهبت مع أخي، وفي الطريق قال لي إنه حدَّث التهامي عن رسوماتي، فطلب التهامي أن يراني. كنا قد وصلنا إلى أطراف قرية جبل الدير، فوجدنا بيتًا منعزلًا؛ فيلَّا من طابقين سقفها من القباب، وكأنها دير أبيض جديد. حيَّا أخي الحارسَ الواقف عند باب الفيلَّا ودخلنا.

لا تبدو فيلَّا عبد الفتاح التهامي كأنها تنتمي إلى القرية التي تقع على أرضها، لا في ثرائها ولا في نظافتها ولا في جمالها، بل كأنها فيلَّا جُلبت من «بلاد برَّه» لتوضع في القرية الفقيرة المقدسة. عُلقت في الداخل على الحوائط لوحات فنية ثمينة لمناظر طبيعية، وأيقونات قبطية، بعضها يحمل توقيع عبد الفتاح التهامي بالحروف الإنجليزية. ومن تلك الحوائط حولنا خرجت موسيقى لا نعرف مصدرها؛ موسيقى رزينة متناسقة تناطح السحاب نفسه في السماء، عكس موسيقانا التي نسمعها في المولد. كنت أحب مواويل الربابة لأنها تشبهني، ولكن موسيقى فيلَّا عبد الفتاح التهامي، تمنيت لو أنا أشبهها.

أدخلتنا خادمة، أنا وأخي، إلى مرسم مكشوف على الخلاء يقع في الناحية الأخرى من الفيلَّا، وجلسنا ننتظر. ثم انقطعت الموسيقى، وجاءت من صالة الفيلَّا امرأة خمسينية جميلة، أجنبية الملامح، تشبه الأميرة ديانا، وكانت هي مَن تعزف هذه الموسيقى السحرية

على البيانو الأسود الضخم الذي في الصالة. أومأت برأسها مُرحبة بنا، فحدثها أخي بإنجليزية مفتخرة، ثم قال لي إنه أبلغها بأننا على موعد الليلة مع التهامي، لأنهما صديقان قديمان.

سمعت كثيرًا عن عبد الفتاح التهامي، رسام الأيقونات العالمي، وشاهدت مرة لقاء له في التلفزيون عند عودته من إيطاليا، ولكنني لم أقابله قَطُّ وجهًا لوجه. وكانت للتهامي قصة تصلح للأفلام، فهو ولد في جبل الدير قبل زمن بعيد، لأسرة شديدة الفقر، غنية في البؤس، أبوه كان وشَّامًا يُوشِّم الصلبان وأيقونات القديسين على أجساد الناس في أيام المولد السبعة، وخارجها فقط للذين يذهبون إلى القدس من قريته، وهم قلة، فيُوشِّم على أكتافهم رسمة لهم وهم في القدس وأسفلها تاريخ الزيارة. ورث عبد الفتاح الموهبة عن أبيه، فبدأ منذ طفولته يرسم على الحوائط بالطباشير، وجاءت رسوماته واضحة، تلفت الأنظار وتزين واجهات البيوت القديمة. فتحولت اللعبة إلى مهنة على الرغم من صغر سنه، بعد أن طلب منه الناس في جبل الدير أن يرسم لهم أيقونات قبطية على واجهات بيوتهم لتباركها وتجملها وتخفف من مظاهر الفقر عليها. وكان الحساب بنظام «العليقة» أي المقايضة، يأخذ مقابل الرسم بيضًا وجبنًا وخبزًا من البيت المرسوم عليه. وحدث في تلك الأيام أن جاءت إلى جبل الدير بعثة من إيطاليا لترميم الآثار القبطية، فلفتت نظر أحد أعضائها الرسومات التي تزين واجهات البيوت، فسألوا عن راسمها، وقيل لهم إنه طفل اسمه عبد الفتاح ابن تهامي الوشام. فأخذوا مترجمهم وراهبًا من الدير وذهبوا لزيارة التهامي في البيت، وقالوا له إن ابنه موهوب موهبة طاغية، وإنهم يقترحون أن يتبنوه فنيًّا ويأخذوه معهم إلى إيطاليا ليتعلم الفن هناك، ويرعوا موهبته،

وسيزور أهله في الإجازات، وذلك بمقابل مالي كبير، كما أن مستقبله معهم سيختلف. وكان لهم ما طلبوه، فقد كان عبد الفتاح واحدًا من ضمن اثني عشر طفلًا للتهامي الأب، أنجبهم من ثلاث زوجات يعشن معًا في بيت واحد، فغياب طفل منهم في مغامرة قد تجلب الثراء لن يسبب للأسرة حنينًا يَظهر، أو لعددها نقصانًا يُذكر، بل بالعكس، هناك مع الأجانب سيضمن على الأقل لقمته ثلاث مرات يوميًّا. وذهب عبد الفتاح إلى إيطاليا مع البعثة وهو ما زال طفلًا، وهناك تعلم وتمرس وكبر، ومن هناك ذاع صيت أيقوناته في العالم كله. ثم بعد أن تجاوز الستين قرر أن يصحب صديقته الإيطالية ويعود ليموت على أرض الوطن ـ وهو هاجس المصريين جميعًا في كل زمان ومكان ومكانة ـ وجاء عبد الفتاح التهامي إلى قريته، وبنى فيها بيتًا أبيض جميلًا يعيش فيه مع صديقته ويرعى فيه مواهب القرية. يعرف أخي بطرس عبد الفتاح التهامي، منذ عاد الأخير من إيطاليا، من خلال الفرير فرانسو، أبيه الروحي، والتهامي يحب بطرس للغاية ويعجبه عقله. كل الناس المهمين كانوا يحبون أخي بطرس، بينما كل الناس العاديين يتجنبونه وتضيق صدورهم منه.

بعد عشر دقائق، دخل إلينا عبد الفتاح التهامي مهللًا، كان خفيف الظل، أسمر، بدينًا بعض الشيء، متوسط القامة، شعره مجعد طويل وكله أبيض، ومربوط برباط مطاطي، ويمسك في يده سيجارًا فاخرًا، ويرتدي قميصًا ملونًا غاية في الجمال، وبنطلونًا قصيرًا يصل إلى ركبتيه، وصندلًا جلديًّا فاخرًا. تجمدت عند رؤيته، وكأني أرى ممثلًا شهيرًا يخرج من شاشة التلفزيون ويمد لي يده ليصافحني. احتضن التهامي أخي بطرس، وقال له:

ـ صديقي الواعد الذي لا يشبه إلا نفسه!

ومال وقبَّلني على رأسي بضحكة حنونة وقال:

ـ الفنان الصاعد في مرسمي، الله الله!

جلس معنا، وأحضرت الخادمة زجاجة خمر مستوردة جميلة التصميم، وإناء معدنيًّا به مكعبات ثلج، وظل يشرب هو وأخي ويدخنان ويتحدثان عن أشياء معقدة. ثم حكى قصته مرة أخرى وكنت أحفظها، فقد سمعتها من أخي كثيرًا، وسمعتها من التهامي نفسه في التلفزيون. ولكنه في وسط حديثه هذه المرة أضاف معلومة جديدة إلى قصة حياته، حيث قال إن ما دفعه حقًّا للعودة إلى مصر منذ سنوات، وإلى بناء هذا البيت الجميل، هو نصر أكتوبر العظيم، لأنه شعر بالعزة والكبرياء، وبقيمة هذا الوطن بعد أن ردت الحرب للمصري اعتباره وكرامته واستقلاله التام للمرة الأولى منذ أن احتل قمبيز مصر قبل الميلاد بنصف قرن.

وتطرق الحديث بينه وبين أخي إلى أيام قديمة، قبل مجيء البعثة؛ وكان عبد الفتاح التهامي كثيرًا ما يحدد أيام سنينه بتقويم خاص به، «قبل مجيء البعثة إلى الجبل» و«بعد مجيء البعثة إلى الجبل»، مثل تحديد تاريخ العالم بـ«قبل الميلاد» و«بعد الميلاد». سأله بطرس كيف كان يرسم الأيقونات القبطية على جدران الحوائط في القرية وهو مسلم، وما كان رد فعل المسلمين حيال ذلك. فضحك ضحكة عالية، تُشعرك بأن صداها سيتردد على مدى خمسين عامًا على الأقل، ثم أجاب:

ـ أيامها كانت مصر غير الآن يا بطرس. لم تكن الحوائط بين الأديان قد بُنيت بعد، وكان مظهر الناس واحدًا، والجوهر في الدين واحد، وهو الخير والستر ولا شيء غيرهما. وكان الناس يلهثون نحو الوصال بالواصلين بأي شكل، وأيًّا كان هؤلاء الواصلون، فالكل يتشفع برموز الكل، والناس طيبون، والانبساط سيد الموقف. ثم أتت الصحوات الدينية من الجانبين، فعلمتهم الفروقات الوهمية القائمة بينهم، وبنت الأسوار العالية بين بيوت الشارع الواحد، فحدث ما حدث وثَقل دمهم وحُرق دمنا.

ثم قام عبد الفتاح التهامي وتوجه نحوي، وأخذني من يدي برقة وألفة وأجلسني أمام لوحة بيضاء وأدوات رسم، وقال لي:

ـ ارسم ما تريد وفرجني.

فرسمت سريعًا لوحة مزدحمة كسوق، مقسمة كالألبوم، بها دوشة ومفردات كثيره للغاية؛ العذراء على حمار ومعها طفلها ويتقدمهم يوسف النجار، وبجوارهم رسمت راعي غنم على تل كبير ينظر إليهم من بعيد، ثم رسمت المسكين تحت الشجرة العابدة، والمدَّاح على الربابة وحوله حلقة من المريدين كحبات العنب حول ساق العنقود يطربون لسماعه، ورسمت وشَّامًا يدق الصلبان للناس، وحمَامًا فوق الكنيسة الأثرية العتيقة، ولعبة القارب في الهواء، ثم رسمت عبد الفتاح التهامي نفسه في إيطاليا يرسم هناك ويأكل.

نظر عبد الفتاح التهامي إلى لوحتي بعد أن أخذت مني وقتًا لا بأس به، وابتسم، وطواها، وقال لي:

ـ الرسم ليس طريقك. الأفضل لك ولنا هو أنك، كل ما رسمته الآن، تجرب أن تكتبه.

أوشية التجلي

وجاء الأربعاء، آخر أيام المولد السبعة، وفيه ستتجلى العذراء مساءً، وصباح اليوم التالي سيذبح أبي حَملي قبل أن نغادر المولد، ولذلك سمح لي بأن آخذ الحَمل معي لأشبع منه، وليشاهد معنا تجلي مَن سيُذبح كرامة لها.

تظهر العذراء في هذا الوقت من كل عام لتؤدي واجبها نحونا بالوداع وكرم الضيافة، ستتجلى كعادتها المهيبة، كومضة يُغشِّي بريقها الأبصار، مكافأة لزوارها في نهاية الأسبوع على شقاء المعيشة سبعة أيام في جبلها الفقير المقدس. في مثل هذا اليوم من كل عام، يجتمع الزوار حول الكنيسة العتيقة عند استعداد الشمس للَمِّ أشيائها من أجل الرحيل، وجرجرة خيوط نورها وموجات حرارتها خلفها. ننتظرها كل عام لتُحيينا بطيبتها بعد أن يبست أنفسنا من الجفاء طوال عام.

وبدأ الناس يكثرون، حتى احتشدوا حول الكنيسة العتيقة بعدد النجوم المتلألئة؛ ناس كُثر يحتاجون ـ لو جاعوا ـ إلى أن يُجمع لهم سمك البحر جميعه ليأكلوه. انتظرناها حتى هرب آخر شعاع شمس نحاسي، وهبط نصف الظلام على الأرض، فقال رجل له وجه نصف مُضيء:

ـ تأخرتْ، أمن المعقول ألا تجيء لنا هذا العام؟!

فأجابت امرأة تجاوزت الستين، مُلوحة له بيدها ليصمت:

ـ كفى الله الشر.

ورد برقة رجل وديع في عينه رجاء، وروح الله ساكنة فيها:

ـ لا أظن، إنه أمر مُقرر من قِبل الله.

والشمَّاس، الذي كان ينظم المديح في الكنيسة العتيقة منذ أيام، قال بتوهج:

ـ هيا يا مريم وسأشيعكِ بالفرح والأغاني.

وفي غمضة عين، من حيث لا ندري، انفتحت طاقات السماء، وفج الحمَام في الخلاء الرحب حول الكنيسة، وكأنه من عند الرب خرج الأمر، كانفجار ينابيع الغمر العظيم؛ كان سِرب حمَام جبلي كبير متطابق، ترى الحمامة، وهي ساكنة، سوداء تظهر من جناحيها ريشة بيضاء على كل جناح، وذيلها نصف دائرة بيضاء أطرافها سوداء. عندما تحلق حمامة منها وتفرد جناحيها في السماء، يتحول الجناحان ويصير لونهما أبيض وأطرافهما قوسين من الريش الأسود. منظر الحمامة وهي تحلق تقشعر له الأبدان وترتجف له رجفة طرب لذيذة. منظرها مهيب، تسبح الحمامة في الهواء، فترى مركزها أبيض ناصعًا كقمر بدر مكتمل تحيط به السماء المظلمة من كل ناحية. طار الحمَام يُحيِّينا ويُحيِّي نفوسنا، وطارت قلوبنا معه ورقصت، وارتعدنا بعضنا في بعض، ثم اطمأنت قلوبنا لأنها ترى وتُعاين، وكستنا سكينة لا ندري مأتاها، وتحدث كل إنسان منا كلِسانه، قال أبونا ساويرس، أبو دميانة:

ـ يا حمامتنا الوديعة، السلام لكِ يا ضيانا بعد ما كنا ظلامًا.

والمرأة التي طلبت من الله منذ قليل أن يكف الشر أصدرت زغرودة، فحلقت بأمواج حبالها الصوتية عاليًا حتى زاحمت الحمَام في السماء، وقالت:

ـ عبيت في مدحك وحسن وصفك جودي بفضلك حنِّي عليَّ.

ثم استزادت:

ـ قلبي رماني في بحر المعاني عجز لساني في المصطفية.

وقالت أم جوارجيوس المسكين كأنها في شجار قديم:

ـ مال قلبي لمريم ما بقى عنها يميل، ومن نهاني عن هواها جاهلًا عقله بهيم.

وقالت امرأة فلاحة تُجلس طفلها على كتفها اليسرى جلسة الإنسان على ظهر دابة:

ـ حلت أنواره البهية فيكِ يا زين البكارة، ورضع لبنك بفيه.

وباستعطاف قال رجل عجوز هرِم، قارب جسده أن يستبدل بالجلباب البلدي لفائف الكتان الأبدية:

ـ عبدك المسكين يطلب منك يا كنز الكنوز أنظر أنوارك بعيني حتى مرة قبل أن يدركني الممات.

وقال خطيب وخطيبته في فم واحد، بابتسامة تبشر بمستقبل سعيد:

ـ يا حنونة خلصيني وارشميني بالأيادي الطاهرات، بحق من آتٍ وآت، لأنني محسوب عليك والحسب طبع الكرام.

وشاب مشرد مجنون، «عقله بين يدَي الله» كما يقولون، رفع يديه بالدعاء، وقال:

ـ مدحها للجرح مرهم يجبر القلب الحزين.

وكان عمدة قرية جبل الدير معه غَفَره، وحريم آل بيته، زوجته وبناته، يعاينون التجلي، فهتف وكأنه في ساحة دواره الكبير يغلق محضر سرقة قلبه منه، وقال:

ـ البتول مريم رجانا في البداية والختام، والكتب عندي إشارة والشهود ملء البلاد.

وغنَّى واحد من الغفر كأنه يؤيد كلام العمدة، ولكن الذكي مثلي يفطن بسهولة أن كلامه لا يخلو من التلسين:

ـ في مديحك يا بتول كم وكم جاهل نصحته كلهم عدموا العقول، الضلال فيهم مقيم ضلهم إبليس وجهلوا، وصار أكثرهم رجيم.

وعاد الشمَّاس مرة أخرى ليقول:

ـ زمَّر يا زمَّار وغنِّ، أقدامها كهلال بدري تحتها قمر منير.

ورجل أعمى يتلفت حوله بأنفه، فتشعر أنه يشم الأشياء حتى التي بلا رائحة منها فسبحان الله يعرفها، ويستعيض بها عن عينه، رتَّل:

ـ شاع ذكرك والعجائب في محلات الظهور، في كنيستك مسك فائح منظرك شمس البدور.

وقال أبي كعادته في عقد اتفاقاته بكلام الرجال الذي هو خيرٌ من ألف عقد وعقد:

ـ المديح فيكِ تجارة من مدح فيكِ استفاد، وجعلت مدحك رأس مالي أشتري فيه ما أبيع.

وقالت أمي بلا صوت تقريبًا:

ـ طاب قلبي في المديح، ومديح مريم مسك فائح شهد طعمه سكري، وكل ما أسمع مديحك يرتاح قلبي من التعب، وينجبر به خاطري.

حتى الراقصة التي كان لها سرادق شهير في أرض المولد، ظنت تقريبًا أنه من الواجب تقديم التحية للبتول مثل الناس، ولكن بما يليق بنقاء مريم الحمامة الحسنة فقالت:

ـ يا ليلة بيضا ونهار سُلطاني مدحك يا مريم يخزي شيطاني.

والرجل صاحب لعبة القارب علق عينه بالسماء حيث الحمَام وكأن التحليق كان حياته قبل أن يصبح لعبته، وقال:

ـ بديعة الحُسن لا خلق تشبهها لا في الجن ولا في الحور العين، وجهها قِبلتي لا ألتقي بدلًا له ومدحها مكسبي وعقلي وديني.

وقالت القابلة جارتنا في بيتنا الأصلي، والتي نعرفها وولَّدت أمي في كل ولاداتها:

ـ زرع الجبار من غير بِذار وبنى له دار في بكر فتاة.

وعاد الشاب المجنون الذي عقله بين يدَي الله يغني بلحن عاطفي ويرقص ويصفق متضرعًا:

قولولي على دي الصبية قولولي يا مؤمنين

قولولي على دي الصبية قولولي الصبية مين

قولولي من سبط مين

وقال مدَّاح الربابة بدون عزف هذه المرة:

سر يا سواق الكواكب سر يا سواق النجوم

عمت في بحر الفنون عمري

وعجبي يا قوم تاه عقلي اليوم

في باب مختوم

وسكن الجميل جواه

فقال الجميع خلفه:

ـ شيء لله يا أم النور.

وكان قد حان موعد أذان العشاء، فصدح من الجامع الصغير الذي خلف الكنيسة العتيقة يقول:

حي على الصلاة

حي على الفلاح

الله أكبر

الله أكبر

وبعد أن حدثت هذه الأمور كان قد مر وقت طيب. ثم ذهب الحمَام من حيث أتى، أقصد من حيث لا نعلم، إذ لا نعلم من أين أتى. وكنت قد تركت عينيَّ في السماء طويلًا بغير انقطاع، أُحلق ضمن الأبصار المتجلية مع الحمَام النوراني الحسن، ثم أنزلت عينيَّ إلى الأرض وسط الزحام والتدافع لأطمئن على حَملي فلم أجده.

ولا بان له أثر منذ ذلك اليوم.

مثل المسكين.

لحظة هبوط ناعمة

أعلنت الإذاعةُ الداخلية في الطائرة دخولنا المجال الجوي المصري، وعندما جاءت مصر جاء النهار، ورحل الظلام، وأخذ معه القمر والنجوم والحكايات. وكانت لحظة لمست عجلات الطائرة سطح أرض مصر لحظة هبوط ناعمة.

شكر خاص للمترجم شريف الصيفي لموافقته على أن أقتبس عبارات من ترجمته لكتاب «الخروج في النهار» عن اللغة المصرية القديمة، وأستخدمها في نَظْم القصيدة في فصل «أوشية الصوت».

المؤلف

عن المؤلف

مينا عادل جيد: كاتب مصري من مواليد المنيا عام ١٩٩٠. تخرج في كلية الآداب قسم الإعلام بجامعة المنيا، وحصل على دبلوم الدراسات العليا في التنمية الثقافية بجامعة القاهرة. كتب في عديد من الصحف والمجلات والمواقع المصرية، كان آخرها جريدة «الأهرام ويكلي»، وعمل مُعِدًّا لبرامج تلفزيونية، وكتب سيناريوهات لأفلام وثائقية وروائية قصيرة. نال كتابُه «كنت طفلًا قبطيًّا في المنيا»، الصادر عام ٢٠٢٠، جائزة الكتاب الأول في العلوم الإنسانية في دورة ٢٠٢١ من معرض القاهرة الدولي للكتاب. وصدرت له كتب أخرى: «استحمار كوكب الـFacebook»، و«يوتوبيا السوشيال ميديا»، و«نواحي البطرخانة».

الهوامش

يشغل الآن منصب مسؤول الاتصال والإعلام بإحدى منظمات المجتمع المدني.

القَدْحةهي خطوة وضع الفول النابت في خليط الثوم المهروس الساخنفي الزيت، مثل قدحة الملوخية. والحياق هو ضبط مقادير الملحوالتوابل في الطعام.

في بعض قرى صعيد مصر، تعنيالطرقة التي تصل إليها بعد صعود السلالم، وتكون أمام الغرففي البيوت الريفية المكونة من طابقين فقط.

هو نواة ثمرة الذرة بعد أن يجف كل ماء فيها، ويُستخدم في القرى المصرية استخدام الفحم في الشيشة.

لباس الكاهن في الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.